alexandra.ahlamontada.com



منتدى مكتبة الأسكندرية



د . طالب عمران



رواية : الفتية الأغرار

وأسرار الكشف

❑❑

د. طالب عمران

الفتية الأغرار... وأسفار الكشف

رواية

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2005

الفصل الأوّل
(عيون تبحث عن الحلم)

- 1 -

عزّ على سعد أن يغادر بلده هكذا، وقد ضاقت به السبل، وأصبح الخيار الوحيد أمامه أن يسافر إلى بلد آخر يبحث فيه عن مصدر جديد للرزق، وهو الكفاءة النادرة التي تحتاجها بلاده أيضاً..

بعد يومين من الاستعداد لنفسي للشعر جهّز حقيبته الكبيرة التي تحوي ملابسه، وحقيبة أخرى تحمل ما يحتاجه من كتبه وأوراقه وبحوثه، واتجه وحيداً صوب المطار وفي القلب حزن عميق على فراق البلاد التي أحبها ولم تمنحه الشعور بالأمان، وقد وضع في مكان لا يتناسب مع كفاءته..

انتهت معاملات سفره بسهولة، ووجد نفسه فجأة في قاعة الانتظار التي تنفتح على بوابات الطائرات، ينتظر الأمر بالعبور إلى طائرته.. حدّق حوله في الوجوه المتعبة التي تنتظر وهي تقطع الوقت بالقراءة والأحاديث أحياناً، والتحديق في البعيد في شرود يحمل القلق والحيرة والترقب..

شعر بيد توضع على كتفه، فالتفت ليجد وجهاً مألوفاً لصبية في أواسط العمر تبتسم له.. قفز مذهولاً:

- لينا؟ معقول؟

ـ كيف حالك يا سعد؟

ـ بخير.. اجلسي يا لينا هنا.. هل أنت مسافرة معنا؟

ـ نعم.. إلى نيويورك أيضاً.. نفس المدينة التي تقصدها..

ـ وكيف عرفت؟

ـ بالمصادفة.. لي صديقة تعمل بشركة الطيران، هي التي أخبرتني عن سفرك إلى أمريكا، كانت تعلم بعلاقتنا..

ـ وماذا ستفعلين في نيويورك؟

ـ أنا أعمل هناك..

ـ ماذا تقولين؟

ـ اعمل في مؤسسة صحافية، تهتم بالدراسات الشرقية القديمة.. إنه اختصاصي كما تعلم..

ـ نعم... نعم.. آه يا إلهي منذ زمن طويل لم أرك.. لا تتصوري كم أنا سعيد بلقائك..

ـ لم تتغير كثيراً..

ـ أربع سنوات ليست زمناً كافياً للتغيير..

ـ أربع سنوات وسبعة أشهر و(20) يوماً..

ـ تحفظينها بدقة؟

ـ وكيف لا أحفظها وقد تغيرت حياتي بعد آخر لقاءاتنا..

ـ أنا آسف يا لينا، لم أكن أملك زمام نفسي، كنت محاصراً بواقع بغيض، دمر الكثير من طموحاتي وآمالي.. أتعلمين لماذا أسافر إلى نيويورك؟

ـ مؤتمر علمي؟

قال متنهداً:

ـ ليته كان مؤتمراً علمياً، أنا أسافر مهاجراً.. وربما لن أعود إلى هنا إلاّ بعد سنوات.. وربما لن أعود أبداً..

ـ ووالدتك..؟

قال بحزن:

ـ رحمها الله توفيت منذ عامين..

ضغطت على يده بحب: ـ أنا آسفة..

مرت لحظات من الصمت ثم قالت فجأة وهي تهز رأسها:

ـ أنت تهاجر؟ معقول؟ أنت كفاءة علمية نادرة يا سعد.

ـ لم يعد لي مكان هنا، قاومت ظروفي الصعبة كثيراً، دون جدوى.. ضايقوني كثيراً يا لينا.. انبعث صوت من الميكروفون: "تعلن شركة الطيران العربية السورية عن إقلاع رحلتها رقم (401) المتجهة إلى (لندن) يرجى من السادة الركاب التوجه إلى البوابة رقم (10)"

ـ هيا يا لينا.. سيكون سفراً طويلاً..

ــ سنقضي يوماً في لندن قبل أن نستقل طائرة الخطوط الجوية الفرنسية إلى نيويورك، عبر كندا..

***

كانت لينا هي الفتاة الوحيدة التي أحبها سعد وعاش معها قصة حب طويلة لم تكلّل بالزواج ربما لعدم جديتها في قبول حبه، كانت فتاة متحررة، لديها الكثير من الأصدقاء الشبان، الذين يتوافدون لزيارتها في البيت مع أمها العجوز.. وعرف أن لها علاقة مع الدكتور (أيمن زيتوني) الذي لمع نجمه في السياسة كأحد أقطاب حزب وحدوي جديد، وبالفعل رآها سعد تخرج أكثر من مرة مع الدكتور أيمن .. ورغم أنه صارحها أكثر من مرة بتضايقه من كثرة أصدقائها، ولمّح للدكتور محسن.. فإن لينا كانت ترفض بإصرار كل هذه التقولات، فما بينها وبين هؤلاء لا يعدو صداقة بريئة خالية من كل شائبة.. ولم يكن مقتنعاً بذلك..

- 2 -

في أحد الأيام، جاء إلى بيتها في ساعة متأخرة من الليل، دون أن يتصل بها بالهاتف، رن جرس الباب ووقف ينتظر.. وبعد فترة فتح الباب وأطل وجهها:

- سعد؟ أنت؟

- أنا آسف يا لينا..

- الوقت متأخر ولكن لا بأس، تفضل..

وصلته الأصوات من الداخل يبدو أن لديها ضيوفاً..

- لديكم حفلة؟

- لا. بعض الأصدقاء أتوا يزورون أمي، تعلم أنها مازالت تطبع كتباً جديدة خارج البلاد..

- آه نعم.. مساء الخير يا جماعة..

قالت الأم معرّفة به:

- الدكتور سعد، إنه أحد علمائنا الشبان.. الدكتور أيمن تعرفه بالطبع يا سعد.. و هذا أيضاً الأستاذ حمدان خبير لغة عربية كان زميلي في التدريس، وهذه زوجته أماني.. والباقي أنت تعرفهم جميعاً فهم من جيراننا..

هز رأسه بانحناءة: - آه.. آه.. تشرفنا..

قال أيمن مشيراً للينا:

- أكملي يا لينا حديثك..

- آه .. نعم.. المهم وصلت إلى طهران في الصباح وكان الثلج يتساقط بغزارة وطلب مني فور نزولي من الطائرة أن أضع (الشادور) العباءة التي تلبسها الإيرانيات الآن..

قال أيمن: - إنه تزمّت.

وعلق حمدان: - ولكنك أجنبيّة يا لينا، لا يمكن أن يرغموك على ارتداء (الشادور)..

ـ لقد أرغموني، ولم أستطع قضاء أكثر من يومين عند إحدى الموظفات في سفارتنا..

همس سعد في أذنها منزعجاً:

ـ ما الداعي لهذه الأقصوصة غير المقنعة.؟. الذي أعرفه أنك لم تسافري إلى إيران أبداً.. همست وهي تشد على يده:

ـ اصمت يا سعد.. نحن نتسلّى..

ـ هذه ليست تسلية..

قال أيمن:

ـ أتعلمون يا جماعة، عندما كنت في إيطاليا كان لي صديق يسكن في منطقة شعبية في روما، في غرفتين على السطح، كانتا مريحتين واسعتين، لهما إطلالة جميلة على المدينة..

علقت لينا:

ـ قضى أيمن في إيطاليا نحو عشر سنوات..

أكمل أيمن:

ـ زرته في إحدى المرات ورأيت طيور الحمام تحط على السطح العالي أمامه بالآلاف كل يوم.. قلت له لم لا تصطاد بعضها ستكون طعاماً شهيّاً.. ويبدو أنه طرب للفكرة فتمكن من القبض على ثلاث حمامات اقتربت منه مع غيرها لشعورها بالأمان.. ثم ذبحها ونظفها، ووضعها في المقلاة، وكانت طعاماً شهياً فعلاً..

قالت لينا: ـ لقد ارتكب مخالفة بالتأكيد..

ـ مخالفة؟ هه.. اكتشفت صاحبة الشقة بعض الريش والدماء في حاوية القمامة، فصعدت إليه تنذره بوجوب إخلاء الشقة خلال (24) ساعة، متهمّة إياه بالوحشية باعتدائه على طيور أليفة هادئة ترمز للمحبة والسلام..

ـ تسببت له في الطرد من الشقة إذن؟

ـ وأتى إليّ ليقضي أسبوعين في شقتي حتى تمكّن من تدبير شقة جديدة بصعوبة، فلقد أبلغت صاحبة شقة السطح، جميع أصحاب مكاتب التأجير بما فعله صديقي.. ولم يقبل صاحب الشقة الجديدة أن يسكنه عنده إلا بشروط صعبة..

علق سعد:

ـ ليس عملاً حضارياً قتل الحيوانات الأليفة كالطيور، دون مبرر.. في بلادنا كانت هناك أنواع نادرة من الحيوانات والطيور انقرضت بسبب الإقبال الجائر على صيدها دون وعي..

سخر أيمن: ـ هه.. بدأنا بسماع الوعظ..

انتفض سعد:

ـ ليس وعظاً، إنه لفت نظر إلى خطأ نمارسه بسكوتنا على تخريب بيئتنا.. صاحبك يا دكتور أيمن لم يكن منصفاً في اعتدائه على الحمام.. وأنت أيضاً كنت مخطئاً بتوجيهه لصيدها..

قال بسخرية:

ـ اعتبرها قضية دولية إذن، وقدم ضدي شكوى لمجلس الأمن..

ـ أنا آسف، اعتقدتك مهتماً بمشاكل الإنسان وقضاياه المستقبلية..

ـ تركت هذا الاهتمام لك يا دكتور..

نهض غاضباً:

ـ أنا آسف، يبدو أنني أفسد حفلكم البهيج..

قالت أم لينا:

ـ اجلس يا سعد.. ولا تدقّق على كلام الدكتور أيمن إنه يبالغ في سخريته أحياناً..

غمغمت لينا:

ـ سأغلي القهوة الآن.. عن إذنكم..

دخل وراءها:

ـ أتسمحين لي بمساعدتك؟

ـ سنلفت النظر بانزوائنا.. في المطبخ..

ـ سأتكلم معك لدقيقة وأعود..

ـ حسناً..

وحين صار في المطبخ:

ـ اسمعي يا لينا، جئت أعرض عليك الزواج مني.. أريد أن أخرجك من هذا الجوّ، ليكون لك بيتك الخاص وحياتك المستقلة..

ـ الآن؟ تعرض علي الزواج؟ ماذا جرى اليوم حتى يتقدم لخطبتي هذا العدد دفعة واحدة؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ الدكتور أيمن ثم الأستاذ حمدان الذي طلبني لابنه علي، وأخيراً أنت..

ـ معقول؟ وطلبك الدكتور أيمن أيضاً؟ هذا يجعلنا مرغمين على الإسراع بالزواج..

ـ ماذا تقول يا سعد؟ أنت لا تملك مؤهلات القيام بأعباء أسرة.. بيتك بالأجرة، وراتبك لا يكفي لفواتير الكهرباء والهاتف..

ـ أنا أعمل أيضاً في مكان آخر، أنت تعرفين؟

ـ أعرف أعرف.. ولكن كل هذا لا يكفي..

شعر بالدهشة:

ـ أنت يا لينا؟ ماذا جرى لك؟

ـ لا شيء.. أنا أفكر بصوت عال.. اعذرني يجب أن أعد القهوة..

انسحب من المطبخ: ـ لا بأس تفضلي..

- 3 -

غادر سعد بيت لينا مستأذناً من الموجودين جميعاً، وهو يشعر

بالأسى في قرارة نفسه على موقف لينا حياله.. وصمّم أن لا يعود إلى هذا البيت، إلاّ إذا انصلحت الحال تماماً وعادت لينا إلى طبيعتها التي أحبها من أجلها..

سمع بعد فترة أنها تزوجت من الدكتور أيمن وأن الزواج لم يستغرق أكثر من ثلاثة أشهر، فلقد ضبطته يوماً مع عشيقته القديمة.. وهكذا تم طلاقهما بصمت وقد تنازلت له عن مؤخر صداقها، وعادت إلى بيت أمها، إلى الحفلات الصاخبة والزيارات المتكررة لأماكن التسلية..

وظلّ سعد بعيداً عنها حتى رآها مرة في الطريق، كان الجوّ بارداً وقد التفّت بمعطفها وهي تتمشى قرب جسر (فيكتوريا).. شهقت حين رأته وبدا له كأنها ستندفع إلى صدره باكية، ولكنها اكتفت بالسلام عليه، ودعته لزيارتها وأمها.. وهو يحدق فيها ساهم النظرات.. دون أن ينفذ تلك الزيارة.. ومنذ ذلك الحين لم يرها..

نبهته وقد لحظت شروده: ـ ما زلت شارداً يا سعد؟

ـ آه .. أفكر في رحيلي هذا.. إنه هروب لا بديل عنه..

ـ وأنا أيضاً..

ـ صحيح يا لينا، البقية في حياتك.. كنت مسافراً حين توفيت أمك، لم آت لتقديم العزاء.. أنا آسف..

غمغمت: ـ لا يهم..

ـ أتعلمين، إنها مصادفة مذهلة أن نلتقي بعد كل هذه السنوات؟

ـ نعم.. كنت أفكر في هذا أيضاً.. ربما كانت مصادفة خاصة لها طعم غريب غامض..

تنهد بحرقة:

ـ كانت حياتنا صعبة.. ألا تتذكرين رفضك الزواج مني وأنت تعدّين القهوة لضيوفك؟

قالت بحزن: ـ كنت دون وعي يا سعد..

ثم انفجرت تبكي: ـ مازلت أعيش في دوامة الندم حتى الآن..

ـ لم أكن أتصور في حياتي أن أتعرّض لذلك الموقف، خاصة من لينا التي أحببتها أكثر من أي شيء في الوجود...

ـ معك حق يا سعد، كنت قاسية تماماً..

وأتت المضيفة نحو لينا:

ـ أتريدين شيئاً يا سيدتي؟ هل أحضر لك بعض المرطبات؟ أراك حزينة..

شكرتها: ـ لا.. لا بأس أنا بخير..

ـ وأنت يا أستاذ هل أحضر لك بعض العصير؟

ـ لا بأس شكراً لك..

- 4 -

عاد سعد إلى شروده وشعر بلينا تلتصق به، نظر إليها بحنان:

((إنها تلقي رأسها على كتفي وتنام، أشعر أنني أعود لتلك الأيام الجميلة التي قضيناها معاً))

***

((سيداتي وسادتي بدأنا نقترب من الجزيرة البريطانية دقائق ونهبط في مطار لندن الدولي))

رفعت رأسها:

ـ يبدو أنني نمت طويلاً..

ـ نحو ساعة.. كنت متعبة..

ـ أرجو أن لا أكون قد أزعجتك؟

ـ ماذا تقولين يا لينا؟ مازلت الأغلى عندي، لا يمكن أن تحلّ مكانك أية امرأة.. أنا لم أتغير يا عزيزتي..

همست: ـ كأنني في حلم جميل، أخاف أن أستيقظ منه.. ضمني إليك يا سعد..

هبطت الطائرة في المطار، وجلس سعد ولينا في قاعة (الترانزيت) في انتظار قدوم الطائرة الفرنسية التي ستقلهما إلى نيويورك..

كانا سعيدين وهما يستعيدان ذكرياتهما القديمة، ولم يشعرا بمرور الوقت كانت هناك عجوز طاعنة في السنّ تجلس على مقعد مجاور.. وحين أعلن عن قدوم الطائرة الفرنسية، وقف سعد ولينا يستعدان لدخول الطائرة ووقفت وراءهما العجوز وهي تحمل حقيبة يدها الصغيرة.. جلسا متجاورين في الطائرة، واقتربت العجوز منهما، تطلب منهما السماح بالجلوس إلى جانبهما في المقعد الخالي، كانت تتكلّم العربية...

ـ ذاهبان إلى نيويورك؟

ـ نعم .. وأنت يا خالة؟

ـ إلى هناك أيضاً أزور أصدقاء.. يقيمون إلى طرف حي (هارلم)..

ـ حيّ الشغب والمشاكل.؟

ـ بل إنه حي البؤس والفقر، صحيح أن الزنوج يرتكبون أفعالاً غير قانونية، ولكنهم فقراء بؤساء، خارج إطار العناية والرعاية..

ـ ربما كنت محقة يا خالة..

ـ اعذراني، أنا متعبة سأنام.. وإن أتت المضيفة من أجل الطعام والشراب، اعتذرا عني، لا أريد أن يزعجني أحد..

قال سعد: ـ كما تشائين يا خالة..

كان التعب يبدو عليها فعلاً.. كما كانت تبدو غريبة بشكلها وملابسها... أمسك سعد يد لينا :

ـ ألست متعبة؟

ـ ربما، ولكني أحس بسعادة لا توصف بوجودك إلى جانبي..

ـ وأنا أيضاً يا لينا..

وانبعثت ضجّة غريبة وبدأت الطائرة تهتزّ..

ـ ما هذا؟ ما الذي حدث؟

ـ سأسأل المضيفة القادمة..

أصرّ سعد على معرفة سبب هذه الضجة التي تهزّ الطائرة.. ولكن المضيفة أعلنت أنها لا تعرف شيئاً..

ثم انبعث صوت قائد الطائرة يهدئ الركاب الذين أحسّوا بالذعر إلى

أنهم يمرون في مطبّات هوائية شديدة..

ولكن اهتزاز الطائرة ازداد لدرجة أنها بدت وكأنها تتمايل في مهب الريح العاصفة وفجأة توقف كل شيء.. وظهر كأن الطائرة اجتازت المطبّات بسلام.. ولكن صوتاً غريباً انبعث من مكبّرات الطائرة: "نحن مضطرون للهبوط فوق مياه المحيط الهادي قرب جزيرة صغيرة.. يرجى الهدوء سننجح جميعاً في اجتياز هذه المحنة إن شاء الله".

ـ يبدو أننا في خطر يا سعد..

ـ يجب أن نواجهه بشجاعة يا حبيبتي..

ـ لست خائفة وأنت إلى جانبي..

عاد الصوت: ((نحن في طريقنا للهبوط، يرجى التأكد من ربط الأحزمة.. والاستعداد لارتداء لباس العوم حالما تستقر الطائرة))..

ـ مازالت العجوز نائمة.. هل أوقظها؟ إنها تربط حزام المقعد.. منذ أن استقرت في مقعدها..

ـ إننا نهبط بسرعة يا سعد..

ـ نعم.. ثقي بالله لن يحدث لنا مكروه..

انتفضت العجوز: ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. هل وصلنا نيويورك؟))

ـ لا يا خالة، نحن نهبط في المحيط، إنه هبوط اضطراري، المطبّات الهوائية التي تعرّضت لها الطائرة، عطّلت بعض أجهزتها..

ـ في المحيط؟ يا إله السماوات..

ـ لا تخافي يا خالة، الطائرة مجهزة لتطفو على سطح الماء.. مدّة تكفي الركّاب لأخذ أمكنتهم في قوارب النجاة..

ـ إنّنا نقترب من المحيط بسرعة، كأنّنا سنصطدم به..

ـ ربما لم يحسن الطيّار المناورة..

ـ يجب أن ينجح في المناورة وإلاّ غاصت الطائرة في المياه..

تمتمت العجوز بكلام بدا لهما غامضاً: ((يا إلهي من أحلامي التنبّؤية؟ كأنني رأيت الحدث قبل وقوعه.. بل رأيتكما في أحلامي.. كانت

شخصية كل منكما واضحة تماماً))

تنهدت وهي تنظر إليهما بعمق:

ـ لا تخافا، كل شيء سيكون على ما يرام..

كان الطيّار مازال يحاول المناورة والهبوط فوق سطح المياه..

ونجح الطيار أخيراً في تعديل جسم الطائرة أيضاً.. لتسير مثل زورق بخاري.. سألها سعد:

ـ أنت خائفة يا لينا؟ ألا تعرفين السباحة؟ ارتدي سترة النجاة بسرعة.. لا وقت لدينا..

قالت العجوز: ـ ساعدني في ارتداء السترة يا بني..

وعاد الصوت: ((ليس لدينا وقت طويل، عجّلوا بارتداء اللباس الخاص بالعوم، بعد دقيقة واحدة ستنفتح الأبواب، حيث سيخرج أفراد الطاقم مع زوارق النجاة، ليساعدوا الجميع في الصعود إلى الزوارق))

شدّت لينا على يده:

ـ ما دمت إلى جانبك لا أشعر بالخوف أبداً..

***

الفصل الثاني
(جزيرة الأسرار)

- 1 -

وانفتحت ستة أبواب على جانبي الطائرة تدلّت منها مزالق متماسكة تصل الطائرة بالبحر، أشبه بالمزالق الموجودة في حدائق الأطفال.. دقائق وأصبح الركاب في زوارق النجاة.. ونفخت وسائد هوائية على جانبي الطائرة وفي المقدمة والمؤخرة، لتجعل الطائرة طافية على سطح المياه دون أن تغرق..

واتجهت الزوارق نحو الجزيرة القريبة، فيما حاول المهندسون إصلاح أجهزة بث اللاسلكي، للاتصال بالعالم الخارجي وطلب النجدة...

وصل الركاب إلى الجزيرة.. كانت جزيرة غريبة بدت لهم خالية من الحياة، رغم الأشجار والنباتات التي تغطيها.. والطيور التي تسبح في سمائها.. كانت مساحة الجزيرة نحو ألف دونم

- أمعقول أن لا يسكنها أحد يا سعد؟

- ربما .. لأنها منعزلة وسط المحيط قد لا يجد الإنسان متعة في سكناها..

- احتمال منطقي.. ما رأيك لو نتجوّل فيها.؟.

- هذا ما يفعله بقية الركاب.. انظري العجوز تقترب منّا.. إنها تشير إلينا..

- أريد أن أبقى معك وحيدة يا سعد..

- إنها مسكينة تحس بالوحدة أيضاً يا لينا.. لا بأس يا حبيبتي إن رغبت بمرافقتنا لن نرفض ذلك..

- كما تشاء..

وصلتهما العجوز سألت:

- إلى أين تذهبان؟ تريدان التفرج على الجزيرة؟ هه سأرافقكما.. أنا أعرفها جيداً..

- تعرفينها؟ هل زرتها من قبل؟

- نعم.. زرتها مراراً.. وهاهي الصدفة تجعلني أزورها من جديد تعالا معي هناك أمكنة أريد أن تتعرفا عليها..

همس سعد:

- فعلاً يبدو أنها تعرف الجزيرة جيداً..

ساروا في طريق مشجّر متعرّج وسط الصخور وأطلّ عليهم بناء قديم..

- هه بدأنا نقترب من المكان..

- ما هذا يا خالة، يبدو هيكلاً قديماً..

- نعم.. وفي داخله كتابات فينيقية تدل على أن الفينيقيّين وصلوا إلى هنا..

- معقول؟ إنه كشف مذهل..

تأمّلوا الهيكل القديم غمغم سعد:

- يا إلهي، فعلاً إنه عالم غريب، هذه هي صور بعض الآلهة الفينيقية منحوتة على الجدران..

- وانظر هناك يا سعد.. إنها كتابات عربيّة أيضاً..

ـ إنه جدار بكامله عليه سور وآيات قرآنية..

علّقت العجوز:

ـ لقد وصل العرب إلى هنا أيضاً، اقرأ يا بنيّ..

ـ نعم.. نعم.. يا خالة.. هه ((بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما سجّله أحمد بن محمد القيسي الشهير بالمكتشف، أحد الشبان الأغرار الذين انطلقت بهم سفينتهم الشراعية في أواخر القرن الرابع الهجري، من الأندلس المسلمة، من (مالقة) المدينة الجميلة.. عبر البحر المحيط، للوصول إلى الأراضي الجديدة.. وقد آمنوا بأن الأرض كرة يحيط بها غلاف هوائي، ويمكن قطعها في خط واحد عمودي على اتجاه نجم القطب..)) بدأت الكلمات هنا متقطعة..

ـ لقد وصلوا إلى هنا إذن؟ إنه اكتشاف مذهل يا سعد..

ـ لا بد لنا من تسجيل هذا الاكتشاف.. إنه يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الفينيقيين غامروا في المحيط واكتشفوا أمريكا كما غامر الشبان الأغرار المسلمون بعدهم، قبل أكثر من ألف عام للوصول إلى هنا.. ليتني أحمل دفتري وقلمي..

ـ سنعود إلى هنا فيما بعد، لنتابع رحلتنا في اكتشاف أرض الجزيرة .. هيا نخرج من هنا..

ـ إنه جوّ ساحر، غير معقول يا خالة..

تساءلت لينا:

ـ هل سنظل هنا طويلاً؟ ألن تأتي النجدة لإنقاذنا وركاب الطائرة؟

ـ نعم يا حبيبتي سيبحثون عن الطائرة وسيجدونها، وسيرسلون من ينقذنا بالتأكيد..

-2-

قالت العجوز:

ـ هناك غابة صغيرة هناك، سنرى شيئاً آخر فيها.. هيا اتبعاني..

ـ أنت رائعة يا خالة..

قالت لينا:

ـ ليتني أملك دفتراً وقلماً يا سعد.. ليتني لم أضع الكاميرا في حقيبتي الكبيرة في الشحن..

قالت العجوز:

ـ سنعبر هذا الدغل المتكاثف.. انتبها جيداً، ربما كثرت فيه الثعابين والحشرات الضخمة..

همهمت لينا: ((كأننا نتبعها مبهورين بشخصيتها الغريبة، إنها تقودنا خلفها، دون أن نملك القوة على رفض نداءاتها لنا))

ـ إنها رائعة هذه العجوز الطيبة.. أي سرّ يكمن في شخصيتها الخرافية حتى تكشف لنا كل هذه المعارف المخزونة في ذاكرتها؟

ـ أتصدق أنها رأت ذلك في الحلم.؟.

ـ ربما .. بعض الناس يتفوقون في حاستهم السادسة..

ـ أنا متأكدة أن سرّاً كبيراً يكمن خلف شخصيتها..

لفتت العجوز نظر سعد إلى أفعى من نوع (الدبوا) شديدة الضخامة والطول، كانت تلتف حول إحدى الأشجار.. اخترقوا الدغل دون أن يلتفتوا إليها شرحت لهم شيئاً عن أفعى (الدبوا) التي كانت تبدو مثقلة بالضحية التي ابتلعتها..

أطّلوا على الغابة الصغيرة.. قال سعد:

ـ الجوّ بارد هنا..

ـ نعم.. وفي داخل هذا الكوخ، سيزداد البرد..

كان كوخاً من الخشب، مصنوعاً بطريقة متينة بديعة.. .. قالت العجوز:

ـ إنه من صنع الشبان الأغرار يا سعد.

ـ الشبان الـأغرار؟ الذين خرجوا من مالقة في اتجاه الأراضي الجديدة. معقول؟ وكيف سنفتحه؟ يبدو محصّناً..

ـ أعرف السرّ، لا تقلقا..

قامت بحركة بسيطة بيدها، فانفتح الباب.. كان البرد شديداً في

الداخل وهناك أضواء غامضة تنير المكان، سألها سعد:

ـ من أين يأتي هذا الضوء؟

ـ إنه الفوسفور وضعوه هنا لينير الكوخ من الداخل، لقد طلوا جدرانه جيداً بالفوسفور..

في أحد الأركان كان هناك صندوق خشبي متطاول تساءل سعد:

ـ يبدو أشبه بتابوت..

قالت العجوز:

ـ هو تابوت فعلاً، يمكنك فتحه

كان هناك شخص يتمدد في داخله..

ـ لا تخف إنه ميّت.. رغم أنه يبدو نائماً.. وضعوا مواد حافظة لجثته لينقلوها في طريق العودة إلى غرناطة، موطن هذا الرجل..

ـ هل هو أحد الشبان الأغرار؟

ـ نعم.. إنه أكبرهم سناً..

ـ وكيف تعرفين ذلك؟ من أين استقيت هذه المعلومات؟

ـ منذ أكثر من أربعين عاماً وأنا أداوم المجيء إلى هنا وإلى المكان الآخر قرب نيويورك، لأحل هذا اللغز بالكامل.. أنا الدكتورة (ليلى الحمدان) أخصائية في الانتربولوجيا وتاريخ الأجناس..

ـ الدكتورة ليلى الحمدان؟ سمعت باسمك من قبل.. أنت تشاركين كثيراً في المؤتمرات الدولية

وأكمل سعد:

ـ ولكن كيف تأتين إلى هناك؟ فالجزيرة بعيدة ومنعزلة..

ـ لدي وسائلي الخاصة يا بني.. أنا آسفة لم أر الوقت مناسباً لتعريفكما بنفسي وقد رأيت فيكما عاشقين يحبان بعضهما كل الحب..

- 3 -

بدأت الدكتورة ليلى تتحدّث بصوت كان ينفذ إلى أعماقهما بشفافية

مدهشة، وهي تفصل ما وصلت إليه من معلومات حول الفتية الأغرار:

ـ غامر الشبان الأغرار بعبور المحيط وكانوا ثمانية عشر شاباً، كان أحمد بن محمد القيسي الذي رأينا كتابته في الهيكل القديم هو أكبرهم..

ـ آه.. نعم.. الذي حكى عن مغامرتهم بالعبور من مالقة Malga إلى هنا..

ـ ويبدو أنه مرض في الطريق، فهبطوا به إلى الجزيرة هنا، وحاولوا إسعافه والعناية به.. وربما كان مصاباً بمرض معد، فعزلوه هنا وكان يتقن الرسم فصوّر ورأسه طافح بالذكريات زوجته الشابة و هو يقطع وقته.. وكان هذا الرسم الرائع.. الذي يبدو هناك..

قال سعد:

ـ يا إلهي صورة بديعة إنها تشبهك يا لينا..

ثم أردف: ـ ومن أين أتى بالألوان؟ أكانت الألوان متوفرة في ذلك الحين؟

ـ يبدو أنها كانت متوفرة، رغم أننا لا نرى صوراً عن ذلك العصر.. ولكن أحمد بن محمد القيسي ترك لنا هذه اللوحة الرائعة على جدار الكوخ.. ويبدو أن رفاقه حنطوا جثته وغادروا الجزيرة وربما فكروا أنهم سيعودون لاصطحابه إلى الأندلس ودفن جثته هناك.. المهم أنهم أكملوا رحلتهم إلى أمريكا..

ـ وكيف عرفت أنهم نجحوا يا خالة؟

ـ إنها قصة طويلة سأذكرها لكم في حينها.. هيا نذهب الآن لنرى ما حدث مع ركاب الطائرة، وهل استطاع الطاقم الاتصال بالعالم الخارجي لإحضار نجدة؟

غمغم سعد: ـ يا لهذه الجزيرة الساحرة كم هي ملأى بالأسرار..

اتجهوا عائدين صوب الشاطئ قالت العجوز:

ـ أنا أقوم بتأليف كتاب عن الكشف العربي لأمريكا سواء الكشف الفينيقي أو الكشف الإسلامي لها لقد زرت الكثير من المناطق التي تحتفظ بآثار فينيقية ثم آثار إسلامية..

ـ وماذا عن الشبان الأغرار؟

ـ قابلت أحفادهم في أمريكا..

ـ ماذا تقولين؟ قابلت أحفادهم؟

ـ نعم يا بني.. قد يسعدني الحظ وأعرفكم على بعض في نيويورك..

ـ إن شاء الله يا خالة، ستكون سعادتنا كبيرة.. إنه كشف كبير، قد يهز الأوساط الثقافية في العالم..

ـ مع الأسف يا ابنتي، أن حضارتنا مازالت مجهولة، لا أحد يهتم بإظهار إبداعاتها، من الحضارات السورية القديمة، حتى الحضارة العربية الإسلامية.. ليتنا نهتم بهذا التراث الهائل..

ـ أتعلمين يا دكتورة، لم أقرأ في حياتي ـ رغم شغفي بالتاريخ ـ عن هؤلاء الشبان الأغرار، لم يذكرهم المؤرخون أبداً..

ـ بل ذكرهم البعض بأسطر قليلة، فيها سخرية من رحلتهم المجنونة عبر المحيط.. ألم يطلق البعض عليهم لقب (الأغرار)؟ إنه لقب ساخر.. رغم ذلك، حققوا نتائج مدهشة..

كان ركاب الطائرة يتجمعون قرب الشاطئ وقد نصب طاقم الطائرة لهم الخيام.. قالت العجوز معلقة:

ـ لا أحد يعلم ما عدد الأيام التي سنقضيها هنا في انتظار النجدة، أرجو أن يكونوا قد نجحوا في تشغيل جهاز الإرسال من جديد..

- 4 -

شعر سعد ولينا بقوة الرابطة التي تشدهما بالدكتورة (ليلى الحمدان) كانت عالماً قائماً بذاته من الموسوعية المعرفية والنبع الإبداعي الغزير..

كانت تعاملهما كولديها، وقد جهزت لهما مكان المبيت، ومن نباتات الجزيرة طبخت لهما عشاء شهياً.. ورغم كل الإرهاق الذي كان يعانيان منه، فقد تأخرا في السهر مع العجوز ولم يصحوا إلا في ساعة متأخرة..

صحا سعد على يد لينا تهزه:

ـ استيقظ إنها العاشرة صباحاً..

ـ آه .. لينا؟ كنت أحلم بك.. يا إلهي كان حلماً جميلاً..

ـ ماذا. حدثني..

ـ كنت ترتدين لباساً عربياً قديماً، وكنت أمشي إلى جانبك في غابة كبيرة، وقد ارتديت أيضاً لباس فارس، حين هاجمنا وحش تصديت له بالسيف وقتلته.. وقد اقتربنا من الدكتورة ليلي، التي كانت تحنّط جثة رجل، لم أتبين وجهه جيداً ولكني لم أشعر بالخوف من الجثة.. وأنت تستندين على ذراعي.. ثم سمعت صوت موسيقا عذبة.. انقطعت فجأة بموسيقا صوتك الرخيم يا حبيبتي..

ـ هيا انهض واغسل وجهك من النبع المجاور.. نحن محظوظون بالهبوط قرب هذه الجزيرة..

ـ اسمعي يا لينا، سألت نفسي كثيراً، كيف تمكنت الدكتورة ليلى من اكتشاف الهيكل والكوخ؟ وكيف أتت إلى هنا من قبل؟

ـ وأنا دار نفس السؤال في ذهني.. لم لا نسأل الدكتورة ليلى يا سعد؟

ـ في ذهني تساؤلات كثيرة أتمنى من الدكتورة ليلى أن تجيبني عليها..

ـ اذهب الآن واغسل وجهك.. سأحضر الإفطار وأدعو الدكتورة ليلى..

ـ حسناً..

وتناولت العجوز طعام الإفطار معهما ثم تجمعوا يشربون الشاي في فسحة عالية تطل على البحر:

ـ قضيت أربعين عاماً وأنا أعمل في هذه المسألة.. لحلّ ألغازها الكثيرة.. ولدى تتبعي لملاحظات الملاحين القدامى توصلت إلى نتيجة أن سفينة الشبان الأغرار لا بد وأنها انحرفت نتيجة لتيارات المحيط الأطلسي المتجهة غالباً نحو الجنوب الغربي.. إلى شواطئ البرازيل..

ـ وشواطئ الأرجنتين؟

ـ نعم.. ولكن بدراستي الدقيقة لتلك الشواطئ لم أجد آثاراً تدل على وصول الشبان الأغرار إليها.. قلت لنفسي لا بد وأنهم وصلوا جزيرة في المحيط، استقروا فيها لفترة، ثم تابعوا طريقهم.. وبدأت عندهم بزيارة جزر المحيط، من جزر الكناري والرأس الأخضر إلى جزر البهاما إلى ما يعرف بجزر الهند الغربية وغيرها من الجزر فلم أجد أيضاً آثاراً هناك.. ثم لفتت هذه الجزيرة انتباهي..

ـ كيف؟ قمت بزيارتها؟

ـ لفتت انتباهي على الخارطة في الأطلس العالمي، جزيرة صغيرة منعزلة يتطابق مكانها مع حساباتي للتيارات البحرية.. ثم قمت بزيارتها، بعد أن موّل رحلتي أحد الأثرياء العرب من المهاجرين الذين استوطنوا (فنزويلا) وقد طرب لفكرتي بعد حديثي المطوّل عن الشبان الأغرار..

ـ وجئت إلى هنا؟

ـ نعم.. وصلت الهيكل والكوخ.. ونجحت رحلتي نجاحاً كبيراً، وقد طلب مني الثري أن أتريث في الإعلان عن اكتشافي حتى إتمام البحث والتعرف على آثار الشبان الأغرار في الأرض الجديدة..

وتعرفت على هذه الآثار؟

ـ نعم يا بني.. إنها على الشاطئ المكسيكي.. تعرفت على بعض أحفاد الشبان الأغرار الذين ـ كما ظهر لي ـ وصلوا الشاطئ المكسيكي وتعرفوا على الهنود الحمر، وتزوجوا منهم، ويبدو أنهم عقدوا صداقات قوية معهم.. وما أزال أعمل في هذا الاتجاه، وقد أخذت أتابع آثارهم، حتى تأكد لي أن أحدهم يعيش في نيويورك نفسها وأنا أقوم برحلتي الآن للقائه..

ـ وأين يتركز عملك الآن؟ ألا تدرسين في جامعة من الجامعات؟

ـ درست في السوربون، مدة أربع سنوات، ثم في جامعة (جورج تاون) كأستاذة زائرة، لعام واحد، ثم في جامعة (مونتبلية Montpelier) في جنوب فرنسا، وعملت في مركز الأبحاث في واشنطن، في قسم الدراسات الشرقية.. وأنا الآن متفرغة للبحث الذي أقوم به عن الكشف الفينيقي العربي لأمريكا..

ـ لا تعلمين كم أنا سعيد، ولينا أيضاً، بالتعرف عليك، أنت أنموذج ممتاز للمرأة العربية النابغة..

ـ لا تبالغ يا بني .. أنا إنسانة عادية، فشلت في تكوين أسرة، فتفرغت للعلم، هذا منطقي، لو كان لدي أولاد لما كان لدي وقت لهذه الاكتشافات..

ـ معك حق.. ولكن يا دكتورة، لم قلت لنا إنك رأيتنا في الحلم.؟

ـ صدقني يا بني لقد رأيتك ورأيت لينا في الحلم، بل ورأيت أن الطائرة ستتعطل بنا قرب الجزيرة.. إنها أحلام تنبؤية تراودني أحياناً.. هذا ليس غريباً.. إنه يدخل ضمن مجال التخاطر والحاسة السادسة..

أكدت لينا:

ـ نعم.. نعم.. أنا مقتنعة بذلك..

ــ اسمحا لي الآن، سأدخل خيمتي لأستريح قليلاً.. إذا رغبتما بمرافقتي بعد الظهر إلى الجزيرة، سأكون سعيدة..

ـ بالطبع سنرافقك، فرصة كبيرة لنا أن نتمتع بمعارفك الواسعة يا دكتورة..

ـ شكراً لك يا بني..

قالت لينا بحب:

ـ أتعلم بدأت أتعلق بها يا سعد..

ـ وأنا يا لينا..

- 5 -

جلسا طويلاً يتحادثان وقد تشابكت أصابعهما:

ـ سبحان الله ما أغرب هذه الأيام التي نقضيها الآن.. هه لم تقولي لي أين تقيمين في نيويورك؟

ـ في بيت صغير لا يبعد كثيراً عن وكالتي الصحافية.. أنا جديدة هناك، منذ نحو العام فقط..

ـ يقال إن (نيويورك) مرعبة في الليل..

ـ بالنسبة إلي لا أخرج في الليل، رغم وجود بعض الأصدقاء العرب مع أسرهم هناك.. وهم يحاولون دعوتي لزيارتهم، ولم ألب دعوة أي منهم حتى الآن..

ـ سيختلف الوضع الآن.. إن حصلت على عمل، كما أتمنى، سنكون ثنائياً سعيداً..

ـ ماذا تقصد يا سعد؟

ـ أقصد أننا سنتزوج.. أنا متأكد أن الحصول على عمل ليس صعباً بالنسبة لي، خاصة وأنني أحمل اختصاصاً علمياً نادراً..

ـ أنت مهاجر بشكل رسمي عبر السفارة الأمريكية؟

ـ نعم.. السفارة التي في بيروت، ومعي عقد عمل في مركز البحوث في نيويورك ولكنهم لم يحددوا لي الراتب، ولا نوع العمل الذي سأستلمه، لذلك لست متفائلاً بالعمل في هذا المركز..

ـ ماذا تقول؟ لن يتركوا سبيلاً لك للتسرب منهم.. لم يحددوا الراتب لأنّهم لم يقابلوك بعد، ويختبروا كفاءتك، هذا أمر طبيعي ولكنني متأكدة أنك ستحصل على راتب ممتاز حين تبدأ عملك معهم..

ـ إلى هذه الدرجة أنت متأكدة؟

ـ بالطبع.. أنت كفاءة نادرة يا سعد..

ـ لم تقولي لي.. ما رأيك بفكرتي.. أن نتزوج حالما نصل نيويورك.. أو حالما أحصل على عمل مناسب.؟

ـ هل أنت جاد فيما تقوله؟

ـ بالطبع.. ولن أترك لك فرصة للرفض، كما فعلت من قبل.. أتعلمين يا لينا؟ لم يفارقني خيالك أبداً، رغم إحساسي بالمرارة من لقائنا الأخير..

ـ أرجوك يا سعد انسَ ذلك.. لا تعذبني..

ـ أنا آسف يا حبيبتي.. هه.. أتوافقين على الزواج مني؟

ـ ولكن..

سمعا صوت العجوز الصارخ:

ـ ولكن ماذا يا ابنتي؟ بالطبع هي موافقة يا سعد.. اعتقدتكما زوجين في البداية.. هه.. هذا الحب الكبير يجب أن ينتهي برابطة لا تنفصم.. أنا مثل أمك يا لينا.. سعد رجل نادر يا ابنتي..

ـ أنا لا استحقه يا خالتي..

ـ ماذا تقولين؟ ربما ارتكبت بعض الأخطاء معه ولكنه يسامحك، و هو يصر على طلبه بالزواج.. سعد..

ـ نعم يا دكتورة..

ـ قبل عروسك يا بني.. ليتني أستطيع أن أزغرد.. ولكن سأقيم لكما احتفالاً كبيراً في نيويورك

ـ أنت؟

ـ نعم.. إنه احتفال بزواج ولديّ..

اندفعت لينا تبكي على صدرها:

ـ آه.. يا أمي العزيزة..

ـ إنه أجمل نداء اسمعه يا ابنتي، سأكون أمك دوماً..

ـ لي الشرف أن تكون أمي..

ـ لا تقولي مثل هذا الكلام يا ابنتي.. أصبحنا أسرة واحدة، متآلفة وسط ظروف ـ رغم صعوبتها ـ قربتنا من بعضنا لدرجة تفوق الوصف.. أليس كذلك يا سعد؟

رددا معاً: ـ معك حق..

- 6 -

بعد يوم آخر تمكن الفنيون من إصلاح جهاز الإرسال وبثت الطائرة عدة رسائل استغاثة، التقطتها محطات الراديو، وبعض المطارات الموازية للساحل الشرقي للأمريكتين.. وبعد عشرة أيام وصلت باخرة ركاب ضخمة، مزودة بطاقم طبي كامل، ولجنة فنية فحصت الطائرة الرابضة فوق المحيط..

وصعد الركاب إلى الباخرة، ولم يبق سوى أفراد طاقم الطائرة، الذين ظلّوا ينتظرون سفينة شحن تقطر طائرتهم إلى أقرب مرفأ، لنقلها إلى أحد المطارات لإصلاحها تمهيداً لعودتها للعمل..

أفرغت الطائرة حمولتها من حقائب الركاب وحوائجهم، وقد أصاب البلل بعضها، ومن بينها حقائب سعد ولينا والدكتورة ليلى..

كانت الدكتورة ليلى سعيدة، من أن مخطوطاتها التي وضعتها في حقيبتها الضخمة، لم يصبها البلل، وهكذا أخرجتها لتريها لسعد ولينا اللذين أقبلا على قراءتها بشغف والباخرة تقطع بهم عرض المحيط في طريقها إلى نيويورك.

كان أحد المخطوطات يتحدث عن التفوق البحري للفينيقيين، وقدرتهم على عبور المحيط والوصول إلى الأراضي الجديدة، وتركوا آثاراً اكتشفتها الدكتورة ليلى على طول الشاطئ المكسيكي، وفي جزر البحر الكاريبي..

ـ أما هذا المخطوط يا سعد فيتحدث عن الشبّان الأغرار..

ـ قصتهم غريبة أيضاً..

ـ نعم.. إنهم ثمانية عشر شاباً تربطهم ببعضهم صلات قربى.. وأبناء عمومة وأبناء خالات وأخوال صمّموا على الرحيل عبر المحيط للوصول إلى الطرف الآخر من اليابسة.. لأنهم كانوا مقتنعين أن الأرض أشبه بكرة.. بعض المؤرخين ذكروا أنهم ذهبوا من برشلونة على البحر المتوسط في القرن الثالث الهجري، ولكن هذا غير منطقي..

ـ لماذا؟

ـ لأن برشلونة في القرن الثالث الهجري لم تكن في يد المسلمين، ولعل أقرب الروايات إلى الصحة هي التي تقول إنهم عبروا من مالقة على البحر المتوسط وقطعوا مضيق جبل طارق إلى المحيط.. في عهد عبد الرحمن الناصر الذي استمر من عام (300) للهجرة إلى (350) للهجرة..

ـ أي في أواخر القرن الرابع الهجري، الحادي عشر الميلادي..

ـ نعم.. ومالقة مدينة جميلة لا تبعد كثيراً عن مضيق جبل طارق أو عن المحيط، وظلّت بيد المسلمين حتى رحيلهم عن الأندلس..

ـ وتعرفت على آثارهم، وتابعتها بدقة؟

ـ نعم.. وقد لاحظتما ما كتبه محمد بن أحمد القيسي أكبر هؤلاء الشبّان عن رحلتهم عبر المحيط، رغم أنني شبه متأكدة أنه يتحدث عن انطلاقه من (مالقة) ـ الكلمة ليست واضحة كثيراً وقد قرأتها برشلونة لأول وهلة ـ ولاحظت يا سعد كيف أنه في زيارتنا الثانية تأكدت من أنه يقصد مالقة وليس برشلونة..

قال:

ـ نعم.. وأتذكر أنه سجل يقول: ((هذا ما سجله أحمد بن محمد القيسي الشهير بالمكتشف أحد الشبّان الأغرار الذين انطلقت بهم سفينتهم الشراعية في أواخر القرن الثالث الهجري..)).

ـ بل أواخر الرابع الهجري، لقد وصلت تلك الكلمة المقطعة فظهرت الرابع وليس الثالث.. انظر

ـ آه صحيح. والمدينة التي انطلقوا منها هي مالقة..

ـ أتعلم أنا سعيدة لأن ما وصلت إليه من معلومات الآن قد تطابقت مع نظريتي، من أن الشبّان الأغرار غامروا بالرحيل أيام عبد الرحمن الناصر، لأن عصره كان عصر ازدهار واستقرار في الأندلس.. و هذا يتطابق مع أقوال بعض المؤرخين أيضاً..

ـ نحن نقترب من الشاطئ..

ـ الحمد لله، أشرفت رحلتنا على النهاية.. كم أنا سعيدة بكما يا ولدي..

**

الفصل الثالث
(كنز من المعارف)

- 1 -

تعرفت الدكتورة ليلى على شقة لينا الصغيرة في نيويورك، وأكّدت أنها ستزورها وسعد بعد أربعة أيام، لأنها منشغلة بعمل يتعلق ببحوثها.. ثم غادرتهما مودعة..

وشهدت الشقة الصغيرة، سعادة الزوجين سعد ولينا، وقد قابل سعد مسؤول الهجرة في الولاية.. الذي أعطاه استمارات، وعرفه على مكان سكنه الجديد الذي قدمته له الحكومة مؤقتاً، حتى يستقر في عمل..

ولقي الدكتور سعد ترحيباً من مركز البحوث، ولم تمر الأيام الأربعة التي غابت فيها العجوز عنهما، إلا واستقرّ سعد في عمله الجديد براتب مبدئي زاد عن الثلاثة آلاف دولار في الشهر..

اعتبر سعد أن ما تحقق كان إنجازاً كبيراً في حياته بعد لقائه مع لينا، كأن القدر يعيد لهما ابتسامتهما التي اختفت إبان سنوات الفراق الطويلة..

وفي الموعد الذي حددته العجوز للقائهما.. في شقة لينا.. جلسا ينتظران مجيئها بقلق وقد بدأ الوقت يمر على موعدها..

- لا تقلق يا سعد، ما زال الوقت ضمن الحدود المألوفة..

- وماذا لو لم تأت؟

- ستأتي بالتأكيد إن شاء الله.. أرجو أن لا يكون قد أصابها مكروه..

ـ أنا خائف، لقد أحببتها وشعرت أن امرأة مثلها حالة نادرة بين نساء هذا العصر..

ـ معك حق..

ورنّ جرس الباب، هرع يفتحه.. كانت أمامه تبتسم:

ـ آسفة تأخرت قليلاً. معي ضيوف تفضلوا بالدخول..

كانوا رجلين وفتاة بدت سمرتهم واضحة.. قالت معرّفة:

ـ هذه فاطمة.. وهذا والد فاطمة وهذا عمها.. إنهم من أحفاد الشبّان الأغرار..

قال بدهشة: ـ ماذا؟ أهلاً وسهلاً تفضلوا..

ـ فرصة سعيدة يا دكتور سعد، لقد حكت لنا الدكتورة ليلى عنك كثيراً، إسمي محمد الاشبيلي.. ربما كان جدّي الكبير يعيش في اشبيلية.. وهذا أخي إبراهيم..

قال إبراهيم:

ـ أنا أدرس الفلسفة الإسلامية في الجامعة هنا.. وأتابع دراسة الدكتوراه..

أوضحت ليلى:

ـ إنهم يسكنون على طرف حي (هارلم) يا سعد..

ثم أخرجت مغلّفاً كبيراً من حقيبتها:

ـ هذه صورة عن المخطوط الذي ورثه عن جده الأكبر ويعود لأكثر من ألف عام.

تفحص سعد صورة واضحة عن مخطوط مكتوب بلغة عربية قديمة..

ـ يا إلهي.. خطه واضح وكلماته مقروءة..

ـ أتعلم أين كان المخطوط الأصلي؟

ـ لا.. ألم يكن في بيت محمد؟

ـ لا.. كان في صندوق سري في بنك نيويورك الدولي استأجره محمد منذ نحو عشرين عاماً، بعد أن عثر عليه بين أوراق والده.. محمد يعرف العربية، ولكنه لا يستطيع قراءة المخطوط.. طلب مني ترجمته

للإنكليزية.. بالطبع لن يعطيني سوى صورة عنه لأترجمها..

ـ عمل عظيم.. وفاطمة ألم تعرف قراءة خطوطه؟

ـ لا.. هذا الخط القديم يبدو في منتهى الصعوبة علي..

ـ معك حق.. لو لم أتعود قراءة المخطوطات القديمة لوجدت صعوبة في قراءته

سألتهم لينا:

ـ هل تشربون الشاي؟

قالت ليلى:

ـ إنهم يحبون القهوة العربية، لا بد وأنك جلبت قهوة من دمشق..

ـ نعم.. نعم.. كانت مغلّفة جيداً، فلم يصبها البلل نتيجة هبوط الطائرة اضطراراً في المحيط..

- 2 -

((أنا أبو الخير حمدان بن سعد الاشبيلي، أحد الشبّان الأغرار.. أحكي قصتي وإخواني، بعد أن عبرنا البحر المحيط من مالقة إلى الأرض الجديدة))

ـ أرأيت يا سعد، بدؤوا الرحلة من مالقة وليس من برشلونة

ـ نعم.. نعم..

ـ ((كنا نجتمع في بيت رفيقنا أحمد بن محمد، الذي كان عالماً كبيراً، رغم مظاهر البساطة والإهمال التي تبدو عليه))

***

ـ هل الفكرة مستحيلة؟ بالطبع لا.. ما دامت الأرض أشبه بكرة فسندور حولها ونصل اليابسة من الطرف الآخر..

ـ بالطبع ليست مستحيلة، ولكنها تحتاج لتمويل..

ـ سأطلب التمويل من الخليفة إذا نجحنا في إقناعه بفكرتنا..

ـ إذن ماذا ننتظر؟

ـ أنتم موافقون على الفكرة..

- نعم.. نحن موافقون..

- وأنت.. ألا توافق يا غالب؟

نظر غالب إليهم مبتسماً:

- نعم.. أنا موافق..

- غالب هو أمير البحر، سيكون قائدنا دون منازع..

- استغفر الله..

- أصبحنا ثمانية عشر الآن.. على بركة الله إذن..

((وهكذا حصلنا على موافقة الأهل والأقارب بعد أن بنينا سفينة ممتازة.. أبحرنا بها على بركة الله من مالقة وسط استهجان الناس وسخريتهم وقد أطلقوا علينا اسم الشبّان الأغرار.. ولن أنسى ما حييت ذلك الوداع الحزين الذي جرى بين غالب وشيماء زوجته.. وكان الوحيد المتزوج بيننا))

- شيماء يا حبيبتي لا تبكي أرجوك.. أنت تقطعين قلبي..

- كيف سأحيا بدونك كل هذا الوقت يا غالب.. بل ربما لن تعود إنها رحلة شديدة الخطورة يا حبيبي.. قد لا أراك بعدها.. وقد لا يراك الطفل الذي أحمله في بطني..

- أرجوك يا حبيبتي لا تقطعي قلبي ببكائك.. إنهم ينتظرونني، إنهم بحاجة ماسّة لي، أنا من سيقودهم عبر المحيط..

- أعلم أنّك أبرع البحارة في الأندلس، ولكني خائفة يا غالب..

- أرجوك سيكون كل شيء على ما يرام بإذن الله..

***

((رغم صلابة غالب، فإنه مرض بعد عشرة أيام، وظلّ رغم مرضه يوجّه السفن، حتى بدت لنا يوماً جزيرة صغيرة عن بعد، اقتربنا من شاطئها.. وطوينا أشرعة سفينتنا وأنزلنا المراسي لنرتاح، لبعض الوقت عسى أن يستردّ غالب صحته.. ولكن حالته ساءت وظهر عليه مرض غريب أكد لنا أنه معد وحذرنا من عدوى انتقاله إلينا، لذلك نصحنا بالابتعاد وانزوى في كوخ بنيناه من أجله.. كان يخرج منه كثيراً ليركب ألواناً غريبة من منقوع الأعشاب التي يغليها أحياناً.. وكنا نحضر له الطعام والشراب كلّ صباح، ونتبادل معه أحاديث قصيرة.. وفي أحد الأيام اكتشفنا أنه مات.. دخلنا الكوخ في ذلك الصباح الحزين لنراه ممدداً بلا

حركة.. نبّهت أحمد إلى وضعه الغريب وهو يحدّق بالجدار أمامه:

ـ انظر إليه.. إنه يستند على السرير وعيناه نحو الجدار.. يا إلهي ما هذا؟

ـ إنها صورة شيماء، تكاد تنطق يا إله السماوات أي عمل بديع صنعه غالب؟ هيا يا أصدقائي يجب أن ندفنه..

ـ وهناك ورقة مكتوبة قرب رأسه..

ـ نعم.. اقرأها من فضلك يا أبا الخير.

ـ إنها تقول: ((أرجو نقل جثماني إلى موطني (مالقة) بلّغوا حبي لشيماء، وأرجو أن تسمي ابني باسم والدي (عبد الله).. وإن كان المولود بنتاً فلتسمها شيماء باسمها وهي أحب مخلوق على قلبي..

قال أحمد وهو يزفر بحزن:

ـ رحمه الله، كان بحاراً شجاعاً.. ستكون مكانه في قيادة السفن يا أبا الخير، لقد درّبك جيداً..

ـ درّبنا جميعاً يا أحمد.. ربما كنت الأقرب إليه لذلك أخذت عنه جميع معارفه البحرية..

ـ وكيف سننقل جثمانه للأندلس؟ ألن نكمل الرحلة؟

ـ خطرت لي فكرة، أنت طبيب يا أبا الخير، أتستطيع حفظ الجثة من التلف لمدة كبيرة.؟

ـ آه.. نعم.. ما رأيكم لو حنّطتها؟

ـ فكرة ممتازة..

- 3 -

((وحنطنا الجثة ووضعناها في تابوت وأغلقنا الكوخ جيداً بعدما حاولنا كثيراً أن نطبّق عليه كلّ معارفنا لحمايته جيّداً، وحفظ ما فيه بدرجات حرارة منخفضة.. ثم أبحرنا في اتجاه الغرب ونحن نوطن النفوس على العودة وأخذ جثمان غالب إلى الأندلس كما أوصانا.. ومرّت الأيام ونحن في عرض البحر، نتعرض للعواصف أحياناً وللتيارات البحرية والدوارات المائية أحياناً أخرى. لم نعد نحصي الأيام نسينا التواريخ.. كان الزمن يمضي ونحن فوق المحيط الواسع..))

((وهكذا ازددنا تعباً، وانتاب بعضنا اليأس، كان السمك هو طعامنا، كنا نصطاده ونشويه على النار مملحاً، وقد عرفنا استخراج الملح من مياه البحر.. حتى صرخ أحمد ذات يوم وكان فوق الصارية العالية في السفينة: "إنها اليابسة".. وفعلاً وصلنا اليابسة.. وقد كاد اليأس يقضي علينا))..

***

وأورد المخطوط كيف عاش الشبّان لأيام قبل أن يكتشفوا وجود قبيلة من الهنود الحمر الذين تعاملوا معهم بحذر، وقد عثر أبو الخير على أحدهم مصاباً من جراء سقوط من مكان مرتفع فعالجه بأعشاب.. ثم تمكن أبو الخير من مساعدة امرأة حامل على ولادة ثلاثة توائم أحياء.. وهكذا كونوا صداقات مع الهنود الحمر.. هم وبحارتهم على السفن الأربع..

ثم تزوجوا من فتياتهم، وعرفوهم على الإسلام، الذي انتشر بينهم.. ولم يطل الوقت حتى عمّ الإسلام القبيلة التي كانت تستوطن الأرض الواقعة جنوب (مكسيكو) اليوم.. وطوّر الشبّان معيشتهم وبنوا البيوت الحجرية، وأورثوا اللغة العربية لأبنائهم وأحفادهم وفي قلوبهم حسرة اجتياز المحيط والعودة للأندلس تلك البلاد التي لم يعودوا إليها أبداً..

***

كانوا يصغون لقراءة سعد للمخطوط، وفي خيالاتهم تدور الأحداث حول أهمية هذا الكشف المذهل الذي يؤكد أيضاً على وصول العرب المسلمين إلى الأرض الجديدة..

ازدادت علاقة سعد ولينا مع أحفاد (أبي الخير الاشبيلي) وقد تمكّنا من تجميع الكثير من المعارف والمعلومات حول ذلك الموضوع شديد الأهميّة.. والدكتورة ليلى كانت تزورهما أحياناً ثمّ تتقطع عن زيارتهما بسبب انشغالها - كما كانت تقول - بتجميع الوثائق لكتابها، من أماكن عديدة في أوربّا وأمريكا.. وفي كل مرة تحكي لهما عن الاكتشافات الجديدة التي تحصل عليها وتضمّها إلى كتابها الضخم حول رحلة الشباب الأغرار إلى الأرض الجديدة، ومسيرة انتقال الأحفاد عبر مئات السنين من مكان إلى مكان آخر.. وقد توزعوا في مناطق مختلفة من الأمريكيتين..

وقد كانت تؤكّد دائماً أنّ تلك المناطق تشهد على وجود بعض الآثار العربية الإسلامية التي يحمل بعضها الطابع الأندلسي، وهي موجودة في مناطق من البيرو والأرجنتين وكولومبيا والإكوادور والمكسيك وأمريكا الشمالية حتى في كندا..

رغم أنها آثار صغيرة لبيوت منقوشة بكتابات ورسومات بعضها غاية في الروعة.. إلا أنها كما تؤكد الدكتورة ليلى آثار بالغة الأهمية في

الفصل الرابع
(العودة إلى الدائرة)

- 1 -

بعد غياب عشر سنوات شعرت لينا أنها بحاجة للعودة إلى المدينة التي تربّت فيها، رغم أنها تفتقد الكثير من أقربائها الذين ماتوا، ومن بينهم أمها وخالتها.. ولكن الذكريات ألحّت عليها للعودة إلى المدينة التي شهدت صباها وطفولتها، رغم أن هذه العودة المؤقتة قد تفتح عليها أنفاقاً من الحزن وهي تتذكر أمها..

كانت تعيش مع زوجها الذي يدرس في الجامعة في تلك المدينة الصاخبة، وكانا سعيدين معاً، رغم أن لينا لم تنجب الأولاد.. بسبب تأخر زواجها..

استعادت ذكرياتها مع سعد وهما يزرعان الطرق والشوارع في المساءات الباردة، وقد ربط الحبّ بين قلبيهما.. ولكن استهتارها وعدم جديتها في تلك السنوات جعلت سعداً يبتعد عنها، فتزوجت مرّة من طبيب لم تعش معه طويلاً، ثم عاشت حياتها، قبل أن تتوفى أمها، فتغادر إلى تلك البلاد البعيدة..

لم تنس تلك المفاجأة التي شهدتها في الطائرة وسعد يلتقي بها وجهاً لوجه بعد سنوات، وهي راحلة للعمل في نفس المدينة التي يهاجر إليها سعد، الذي يحمل شهادة دكتوراه في الفلك، والمعروف بأبحاثه وكتبه ومقالاته..

استيقظ الحب القديم في كليهما دفعة واحدة، وتطور إلى زواج، أطلق عليه سعد، (زواج قبل فوات الأوان). كانا يعيشان سعيدين، حين ألحّت

على لينا فكرة السفر إلى الوطن، مع سعد.

ورغم محاولته تأجيلها، ألا أنه وافق عليها، وقد بدأت ذكرياته عن العالم الذي عاش فيه طفولته وصباه تستيقظ من ذاكرته بكل قوة..

الوطن في القلب.. ويظلّ القلب ينبض بحبّه حتى يتوقف عن الخفقان.. هكذا كان سعد يردد..

وهكذا استعدّا للسفر.. وهيّأا نفسيهما للمكوث ثلاثة أشهر، نصفها على الأقل في بلدته.. ولكن شيئاً خارقاً عطّل عليهما سفرهما.. فلقد جرى تفجير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن.. وأصبحت حوادث الحادي عشر من أيلول استثناء ألقى بظلّه المعتم على العالم..

ـ تغيّر الوضع حولنا، أصبح الجميع ينظرون إلينا بريبة..

ـ حتى عندنا في الجامعة، وفي المرصد الفلكي التابع لها، أصبحت نظرتهم لي مختلفة..

تنهدت: ـ كأن شرخاً حدث في التاريخ البشري.. قد يصبح العالم في مهب الريح..

ـ ليتنا سافرنا قبل الحادث.. أنا آسف كنت منشغلاً في بعض الأبحاث، ولم أرغب بالسفر قبل إتمامها..

ـ إنه قدرنا، قد لا نستطيع السفر إلاّ بعد أشهر.. شركات الطيران غيّرت برامجها، ومخططاتها..

ـ لا بأس يا لينا، وماذا في استطاعتنا أن نعمل؟ مضت أيام على الحادثة والعالم يغلي، كأن القوة العظمى تحضّر للهجوم على تلك البلاد الشرقية..

ـ مساكين، سيقاومون بصدورهم آلات الدمار المتطوّرة..

ـ ما رأيك لو نذهب في جولة سنمرّ من خلالها على المؤسسة الصحفية التي تعملين بها؟ ما زال موضوع الدكتورة ليلى الحمدان يشغلني..

ـ تلك المرأة المدهشة؟ يا إلهي كم أفتقد رؤيتها.. هل سمعت عنها خبراً جديداً؟

ـ لا.. وهذا ما يحيّرني، انقطعت أخبارها قبل نحو عامين.. كيف جرى ذلك؟.

ـ آه.. يا إلهي.. رغم محاولاتي الكثيرة التي تعرفها.. وكنت مشغولة كما تعلم بموضوع شرق آسيا، وتاريخ تلك المنطقة بعد الأزمة الاقتصادية الكبيرة التي مرّت بها نتيجة الضغط الأمريكي.. لم أستطع الوصول إلى خبر عنها.. كيف اختفت؟ ولماذا؟

ـ لا بأس.. يعلم الله أين هي الآن؟ يا إلهي ماذا يحصل للعالم؟

ـ أتعتقد أنهم جادون في الهجوم على تلك البلاد الشرقيّة؟

ـ نعم.. بالتأكيد، وقد بدؤوا يجمّعون أساطيلهم ويستنفرون جنودهم تحضيراً للبدء بالهجوم..

ـ لماذا تذكرت الدكتورة (ليلى حمدان) الآن.؟.

ـ لأن صلتنا بها انقطعت فجأة، دون أن نستكمل معلوماتنا عن مشروعها الضخم في إثبات أن (الفتية) الأغرار، قد اكتشفوا أمريكا قبل نحو (500) عام من اكتشاف كولمبس لها..

ـ معك حق.. لم تتصل بنا اعتقدت أنها سافرت في سبيل إكمال بحثها.. ولكنّها أطالت الغيبة كثيراً..

ـ رغم أنها كثيرة التجوال والترحال في سبيل اكتمال معلوماتها، لم أعتقد أنّ العثور عليها صعباً إلى هذه الدرجة..

ـ ما الذي سنفعل لمحاولة معرفة أيّة أخبار عنها؟ هل سنتصّل بأصدقائنا الهنود؟

ـ أنا أفكر بذلك منذ الحادي عشر من أيلول، منذ أن وقعت الأحداث..

ـ لا نعرف تأثير تلك الأحداث عليهم.. كان يجب فعلاً أن نتّصل بهم..

تنهّد ـ وأنا أتأمل ما يمكن أن يحدث للعالم، خطر على بالي موضوعها حول الفتية الأغرار، قلت لنفسي، لن يكون ذا فائدة في هذه الأيام، لأن ما يجري أخطر بكثير من البحث في التاريخ وإثبات نظرية معينة..

ـ إلى هذه الدرجة أنت متشائم؟

ـ نعم يا لينا.. ما يحدث سيكون مرعباً، أكاد أرى تجلياته المرعبة..

ـ أتستفقدها يا سعد؟

قال متنهداً:

ـ لا أدري أشعر بحاجة كبيرة لامرأة مثلها، فيها حنان الأم، وقوة العالمة، وشهامة الفارسة..

ـ إنها تتمتع بهذه الصفات فعلاً، وربما أضيف إليها صفة الاهتمام بنزعة الخير عند الإنسان والقتال من أجلها تحت أي ظرف..

ـ سأبحث في دفاتري القديمة عن أرقام هواتف أصدقائنا الهنود.. واسألهم عنها بل وسأحاول زيارتهم في بيوتهم على أطراف حي (هارلم)..

ـ عائلة الاشبيلي؟ غريب نحن في نفس المدينة منذ سنوات ولم نتبادل الزيارات.. زرناهم لعدّة مرّات في بداية تعرفنا عليهم.. ثم بدأت تلك الزيارات تقل حتى انعدمت منذ سنوات.

ـ نحن نعيش في مجتمع العمل فيه هو كل شيء، نعمل من الصباح حتى المساء، ونأتي مرهقين، وفي عطلة نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد، نخرج للراحة في الخارج، والتنزّه والتبضّع من الأسواق، لا وقت لدينا فعلاً.. ولكن رغم ذلك ما كان علينا أن نهمل الدكتورة ليلى، خاصة أن الموضوع الذي تقوم ببرهانه مهمّ..

ـ أعتقد أنها وصلت إلى تطوّر كبير في هذه المسألة..

ـ بالطبع، أتذكرين، زارتنا مرّات عديدة قبل أن تتجه إلى إسبانيا لتتابع أبحاثها، وهناك حدث لها حادث أقعدها في غرناطة لعدة أشهر ثم أتت إلينا في زيارة سريعة، وقالت إنها ستذهب إلى بيروت وستتصل بنا فور عودتها.. ولم نرها بعد ذلك..

ـ لكنها اتصلت عدة مرّات، وفي أزمنة متفرقة.. نحن لم نلح على موضوعها كثيراً في ذلك الحين.. كنت مشغولة في ذلك الحين بمحاولة الحمل.. آه يا إلهي.. كم كانت تلك الأيام صعبة. حاولت أن أنجب رغم كل شيء.. وكان الوقت متأخراً..

ـ المهم أنت بخير، وتعيشين معي، وأنا سعيد معك، لا تفتحي مثل هذه المواضيع من جديد.. أرجوك يا لينا..

ـ حسناً.. سأحاول، أعدك..

ـ سأذهب إلى المكتب في الغرفة الداخليّة، أفتش عن أرقام هواتف أصدقائنا الهنود..

- 2 -

كانت الدكتورة ليلى قد تمكنت من الوصول إلى الكثير من الوثائق

حول أولئك الشبّان الشجعان، ولكن أسئلة كثيرة ظلّت في داخل سعد لم يتمكن من معرفة أجوبتها.. شغلته الأبحاث المرهقة في بلد العمل فيه يمثل الإرهاب بعينه - عن متابعة أبحاث الدكتورة ليلى تلك الباحثة الخارقة، التي توصلت إلى نتائج باهرة في إثبات أن الفينيقيين وصلوا شواطئ أمريكا، وتحاول أن تكمل إثباتاتها أن العرب المسلمين قد وصلوا أيضاً إلى شواطئ أمريكا، وأنّ الفتية الأغرار الذين انطلقوا من الأندلس قد وصلوا هناك وامتزجوا مع شعوب تلك البلدان.. وما زال هناك العديد من الأسر من الهنود الحمر لهم أسماء عربية تؤكد بذلك على تلك المقولة..

عثر سعد في دفاتره على بضعة أرقام من الهواتف أمام اسم الدكتورة ليلى اتصل بهم واحداً واحداً.. من بين خمسة أرقام كان هناك رقم لا يجيب أمّا الباقي منها فكانت لأناس لم يتعرفوا على الدكتورة ليلى..

وصمم عندها أن يزور عائلة الاشبيلي.. وهكذا أمسك سماعة الهاتف و ضغط على أزراره على رقم تلك العائلة بعد نحو ثلاث سنوات، و هو خائف أن لا يردّ عليه أحد أو أن يكون الرقم قد تغيّر..

- ألو.. بيت الاشبيلي؟

- نعم.. من أنت؟

- أنا الدكتور سعد..

- سعد السوري؟

- نعم..

- أهلاً بك يا دكتور.. أنا فاطمة.. ابنة محمد الاشبيلي..

- كيف حالك يا فاطمة.. أنا آسف مضى وقت طويل لم اتصل خلاله بكم.. ظروفي معقدة وعملي كثير..

- لا بأس يا دكتور..

- والدك موجود؟

- سيأتي بعد ساعة.. هل أبلغه شيئاً؟

- أرجوك، أريده أن يتصل بي.. على هذا الرقم..

- لا بأس.. يمكنك الكلام معه على هاتفه النقّال.. أليس عندك الرقم؟

- لا.. ما هو من فضلك؟

أعطته الرقم، وطلبت منه زيارتهم وزوجته.. فأكد على ذلك وأغلق الهاتف قالت لينا:

ـ اتصل به فوراً.. وإن رغبت بزيارته يمكنك ترتيب الموعد..

ـ معك حق..

ضغط على أزرار النقال فأجابه صوت أجش:

ـ ألو.. نعم.. من يتكلّم؟

ـ أنا الدكتور سعد.. كيف حالك يا محمد؟

ـ الدكتور سعد، أهلاً بك، منذ زمن لم تتصل بنا.. خير؟ ما أخبار الدكتورة ليلى؟

ـ لا أعرف عنها شيئاً.. كنت أود أن أسألك عنها..

ـ أنا آسف.. أنا في قسم الشرطة.. اعتقلوا أخي إبراهيم للتحقيق..

ـ خير؟ ما الذي جرى؟

ـ بعد (11 أيلول) اختلطت الأمور يا دكتور..

ـ معك حق.. يجب أن نلتقي إذن.. بأقصى سرعة..

ـ سأعود بعد قليل إلى البيت بعد أن أطمئن على إبراهيم.. تفضل. سنكون سعداء باستقبالك هناك..

ـ شكراً لك.. سأمرّ مساءً أنا وزوجتي..

ـ الأفضل أن تمرّ بعد الظهر، لنتحادث طويلاً، ولنتناول العشاء معنا..

ـ سأحاول..

ـ لا.. أرجوك.. حاول القدوم مبكراً..

ـ إن شاء الله.. إن شاء الله..

شعر سعد بغصّة، فإبراهيم معتقل، ربما لانتمائه الديني، أو ربما لأمر آخر ومحمد كما يبدو لا يعرف الكثير عن الدكتورة ليلى، فلقد سأله مباشرة عن أخبارها..

انتابه إحساس بالتقصير بحق هؤلاء الناس البسطاء، الذين تعود جذورهم إلى (أبي الخير الاشبيلي) أحد الفتية الأغرار الذين وصلوا قبل

ألف عام على متن سفينتهم الشراعية إلى أمريكا، قبل كولمبس بنحو (500) عام..

هذه العائلات الهندية المتناثرة في عدة مناطق على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية والجنوبية، لها جذور عربيّة.. إن الفتية الأغرار تزوجوا من الهنود الحمر واختلطوا بهم وكونوا أسراً مشتركة.. كيف تناسى هذا الموضوع طوال تلك السنوات؟

حكى لليندا بعضاً من أفكاره.. واستعدا للذهاب معاً إلى بيت محمد الاشبيلي على طرف (حي هارلم)..

كان يوم الأحد بالنسبة لهما، يوم راحة، ويبدو أنهما لم يكونا بحاجة للراحة في تلك الأيام، وشبح ما بعد (11 أيلول) يربض جاثماً بظله البغيض فوق الأفكار والمشاعر والطموحات..

- 3 -

قاد السيارة بهدوء صوب بيت الاشبيلي، كانت الشوارع قليلة الازدحام كالعادة في أيام العطل، ولكن الوجوم والعبوس كان مسيطراً على الناس وعلى رجال الشرطة وسائقي السيارات ومن يتحرك في الشوارع أو في سيارته الخاصة.. وصلا أخيراً إلى المنطقة التي يسكن فيها محمد..

لم يتذكر سعد جيداً مكان البيت فسأل بعض الناس المتواجدين في الشارع عنه..

ـ عفواً.. هل يعرف أحدكم بيت الاشبيلي؟

ـ الاشبيلي؟ ذلك الرجل الكهل، إبراهيم؟

ـ إبراهيم؟ أم محمد؟ لا فرق..

قال أحدهم هامساً: ـ الناس بدأت تنفر من هذه العائلة، يقال إن لها علاقة بالذين ارتكبوا التفجيرات..

ـ ماذا تقول؟ تلك العائلة من الهنود الحمر وأمريكيّة..

ـ أنا هندي أيضاً.. ولكن الإشاعات عن بيت الاشبيلي تنتشر بسرعة.. أن لهم علاقات وطيدة بمن قاموا بتلك التفجيرات..

ـ لا أعتقد أن هذا صحيح، على كل حال أرجوك دلني على البيت الذي أقصده..

ـ إنه في تلك الناحية، لونه أبيض وقربه محلّ لبيع السجائر..

- شكراً لك..

انطلق بالسيارة صوب المكان الذي أشار له الرجل:

- أرأيت يا لينا؟ بدؤوا يلفقون التهم..

دارت السيّارة منعطفة صوب المكان الذي أشار إليه الرجل، تنهّدت لينا بارتياح:

- الحمد لله وصلنا أخيراً..

طرق الباب فطالعه وجه محمد الذي ازداد كهولة وتعباً..

- أهلاً وسهلاً بكما.. مضى وقت طويل..

- أنا آسف فعلاً.. ولكن تعلم أن العمل في هذه البلاد ينسي الإنسان حتى نفسه..

- معك حق..

- قل لي ما قصة أخيك إبراهيم؟

- تعلم أن لإبراهيم اهتمامات تاريخية كثيرة، و هو يكتب المقالات في مجلات تاريخية عديدة، وأحياناً يلتقي بالكثيرين ممن يعملون في حقله.. ومن بينهم عرب، يبحثون في مسائل تاريخية معينة، ويتردد عليه بعضهم..

- وكان من بين من ترددوا عليه أحد المتهمين بحوادث التفجير؟

- لا يا دكتور.. من المستحيل أن تصل التحقيقات إلى هذه الأسماء بسرعة كبيرة.. إنه الشك، الشك بكل إنسان له علاقة مع العرب أو المسلمين، خاصة الذين يعتقدونهم محافظين..

- فهمت.. وما هي آخر الأخبار عنه؟ هل سيطلقون سراحه؟

- وعدني المحامي بذلك خلال أيام.. فليست هناك تهمة حقيقيّة ضدّه.. ولكن تعرف الظروف، إنهم يضخّمونها ليضايقوا بعض الناس..

- معك حق..

أحضرت فاطمة الشاي وهي تبتسم لهما سعيدة بوجودهما..

- شكراً لك يا فاطمة.. هه؟ متى انتهيت من الدكتوراه؟

- منذ ثلاث سنوات تقريباً.. بعد آخر زيارة لكما بأشهر قليلة..

ـ ماذا كان موضوعك؟

ـ حول فلسفة ابن رشد وتأثيرها على فلاسفة الغرب..

ـ موضوع مهم..

قال سعد للينا:

ـ جيّد أنك تذكرت أن فاطمة كانت تدرس الفلسفة الإسلامية

ـ تناقشنا في ذلك مع الدكتورة ليلى حين تقابلنا لأول مرة..

ـ آه.. قل لي يا محمد ما هي أخبار الدكتورة ليلى؟

ـ منذ نحو عامين ونصف لم نسمع عنها شيئاً..

قالت فاطمة :

ـ كانت مرتبكة وقلقة في آخر زيارة لها.. ولما سألتها عن السبب، قالت لي:

((ـ يبدو أن البحث الذي أقوم بإكماله يا فاطمة قد أزعج البعض، فأرسلوا رسائل يهددونني بها..

ـ ألا تعرفين هؤلاء؟

ـ أشعر أحياناً أنهم يحصون عليّ أنفاسي، أسمع خطواتهم ورائي، أشك في من يجلس إلى جانبي دون إذن في المطعم، في المكتبة.. حتى في البيت بدأت ألحظ جولاتهم التفتيشية على أثاثه.. وبين الكتب والأغراض..

ـ ولم تفقدي شيئاً من وثائقك؟

ـ لا.. أنا حريصة جداً على ذلك.. أنا لا أحمل هذه الوثائق والمخطوطات معي، أضعها في خزانة المصرف القريب من بيتي.

ـ أنا خائفة عليك، لم لم تبلّغي الشرطة بذلك؟

ـ أبلغهم عن وجود أشباح لا أراهم ولا أعرف عنهم شيئاً..؟

ـ ورسائلهم إليك؟ أليست وثائق.؟

ـ إنها رسائل بالإنترنت لا تعد دليلاً..

ـ انتبهي لنفسك يا دكتورة أرجوك.

ـ عندي بعض الأعمال المهمة هنا، وحالما أنتهي منها، سأغادر إلى إسبانيا، لاستكمال الفصول الأخيرة من الكتاب، ثم أتجه لبيروت لطباعته..

ـ ستبقين هنا لبعض الوقت؟ ما رأيك أن أكون رفيقتك.. ربما كان هذا مبعث اطمئنان لك..

ـ لا يا ابنتي، لا أريد أن أجعلك رفيقة لي، قد ينتقل الأذى الذي يصيبني إليك.. حتى سعد ولينا لم أرغب في تجديد الاتصال بهما حتى لا يتعرضا للمضايقة وربما للأذى.. تعلمين كم أحبهما.. إنهما في مقام ولديّ..

ـ إلى هذه الدرجة يضايقونك؟ سأتكلم مع والدي..

ـ لا.. لا داعي لذلك..

ـ يجب أن نظل على اتصال دائم ببعض.. أرجوك انتبهي لنفسك..

ـ إن شاء الله..))

وأكملت فاطمة حديثها وقالت:

ـ تلك كانت آخر زيارة لها..

سألها سعد: ـ ولم تتحدث معكم بعد ذلك؟

قال محمد: ـ اتصلت بي لأخبر أخي إبراهيم أن يقابلها في المكتبة العامة هنا..

ـ وقابلها؟

ـ نعم.. ولا أدري ما جرى بينهما.. لم أسأل إبراهيم..

سألت لينا: ـ ولم تتصل بك بعد ذلك يا فاطمة؟

قالت فاطمة: ـ اتصلت مرتين، كانت في كل مرّة تستفسر عن مسيرة دراستي.. وفي آخر اتصال ذكرت أنها تجهز نفسها للسفر إلى إسبانيا.. ولم نسمع صوتها بعد ذلك.. قالت إنها سترسل لي رسالة من إسبانيا..

سأل سعد: ـ ولم تفعل؟

ردت فاطمة: ـ لا.. لم أستلم منها شيئاً..

ـ ألم تترك لكم عناوينها في إسبانيا، أو في بيروت؟

تنهد محمد: ـ لا.. مع الأسف.. تبدو متلهفاً يا دكتور سعد على أخبار

الدكتورة ليلى؟ أقلقتني؟ أهي تمر بأزمة؟ أم حدث لها حادث؟

زفر سعد بقلق: ـ صدقني لم أسمع عنها خبراً منذ أكثر من سنتين..

ـ وكيف تذكرتها، وبدأت تسأل عنها؟

ـ لا أدري.. تذكرت موضوعها الهام.. وأنه قد لا يحدث الأثر المنتظر الذي كانت تطمح إليه، نظراً لتداعيات الأحداث الأخيرة التي غيّرت اهتمامات الناس وربّما اهتمامات المثقفين..

ـ لا.. ليس إلى هذه الدرجة.. إنها مرحلة ستزول سريعاً.. وتزول تأثيراتها بإذن الله..

ـ مع الأسف تبدو مرعبة في نتائجها..

ـ أنا معك.. ولكن ألا يمكنك يا سيدة لينا أن تلاحقي أخبارها عن طريق مركزكم الذي يهتم بالدراسات الشرقية؟. إنه مركز صحافي معروف..

ـ كنت أفكر بذلك وسعد.. ربما أخصص لهذا الموضوع ساعة من عملي غداً..

ـ وربما توصلت لبعض النتائج.. نحن متشوقون فعلاً لسماع أخبارها والاطمئنان عليها، إنها سيدة نادرة المثال..

- 4 -

سمعوا طرقاً على الباب فأتجه محمد يفتحه طالعه وجه امرأة:

ـ فاطمة هنا؟

ـ نعم.. ماذا تريدين؟

ـ أعطوني هذا الطرد لأسلمه لك..

ـ من؟ من الذي أعطاك إياه..

ـ رجل أعطاني دولارين.. كان يقف هناك..

ـ أين؟ لا أراه..

قال محمد: ـ اتركيها يا ابنتي.. إنها صادقة. ألا تعرفينها؟ إنها مشردة من (هارلم)..

قالت فاطمة: ـ لم أتذكرها..

أغلقت الباب واتجهت إليهم تحمل الطرد، قال محمد مكملاً:

ـ أراها أحياناً حين أزور أصدقائي هناك.. أرني الطرد يا فاطمة.. يبدو كأنه كتاب..

قال سعد بقلق:ـ انتبه جيداً يا محمد.. لست مطمئناً.. قد تكون قنبلة موقوتة؟

ـ ماذا تقول؟ لماذا؟ لم أفعل شيئاً لأحد.. ولم تفعل ابنتي شيئاً لأحد..

ـ لست مطمئناً لطرد يأتي من شخص لا تعرفه، يختفي بعد تسليمه..

قالت لينا: ـ يا سعد معك حق.. انتبه يا محمد أنت وفاطمة.. كما اعتقلوا إبراهيم قد يرسلون شيئاً مؤذياً..

قال محمد: ـ وماذا تقترح؟

أكد سعد: ـ أن تسلّمه للشرطة بسرعة.. أو أن تلقيه في النفايات.. المهم أن لا تفتحه..

ـ حسناً إنها موجهة للدكتورة فاطمة من شخص يقول إن في داخلها مخطوطة مهمة..

ـ ولم لم يأت لتسليم هذه المخطوطة بنفسه.. هه؟

ـ آه.. إنه يكتب بعض العبارات هنا حول ذلك.. يقول.. "أعلم أنكم تهتمون بالمخطوطات القديمة.. وقد عثرت بين أغراض جدّي على هذه المخطوطة التي قالوا لي إنها مكتوبة بالعربية، ولأني لا أعرف العربيّة، ولن أستفيد منها وحتى لا ألقيها مع المهملات.. قررت إرسالها لك يا دكتورة فاطمة.. ولست راغباً في أن تعرفي على من أكون.. وأين أعمل وأين أسكن؟"

ـ أرني.. إنها ثقيلة قليلاً.. ما رأيك يا لينا؟

ـ شيء يحيّر.. ربما كانت مخطوطة فعلاً.. وربما كانت شيئاً آخر.. إن كانت مخطوطة لمَ لم يرغب برؤية فاطمة؟

ـ هذا هو السؤال المهم.. ماذا تفعل يا محمد؟

ـ سأفتحها مستعيناً بالله.. هه.. إنها فعلاً مخطوطة.. انظري يا فاطمة..

ـ مكتوبة بالعربيّة، وقديمة.. يا إلهي.. تشبه المخطوطة التي نحتفظ فيها في خزانة المصرف..

ـ كيف؟ تتحدث عن الفتية الأغرار..

ـ لا أدري.. إنها بنفس الخط تقريباً.. ولكنها تتحدّث عن رحلة بحرّية أيضاً.. في ظروف عاصفة.. يجب أن أدرسها جيداً..

ـ سعد يتقن العربيّة، أعطه إياها، قد يعرف الجواب..

ـ تفضل يا دكتور.. تبدو شديدة الأهميّة..

ـ كأن ذلك الرجل الذي أوصلها إليك بهذه الطريقة، يريد أن يتخلص من كل الآثار التي تربطه بأجداده..

ـ يمكن؟ ربما كان ذلك أحد نتائج بعبع الرعب الذي حدث في الحادي عشر من أيلول..

ـ إنها مخطوطة.. نادرة يا فاطمة.. أعتقد أن جدّك الأول أبا الخير الإشبيلي كان زميلاً لكاتب هذه المخطوطة.. أي أنه أحد الفتية الأغرار.. سبحان الله، كيف قادتني الصدفة لأرى مخطوطة جديدة، أتتكم بالصدفة أيضاً، لأنَّ صاحبها راغب بالابتعاد عن كل ما يذكّره بأصله، خوفاً من أن يحدث ما حدث لإبراهيم أخيك..

ـ هل ستقرأ بعضاً من صفحاتها..

ـ نعم.. نعم

سمع صوتاً متواصلاً على الباب وحين فتح محمد الباب اندفعت المرأة المشرّدة إلى الداخل:

ـ أرجوك يا سيدي أعطني الطرد.. صاحبه أتى يسترده وأعطاني مبلغاً إضافياً..

ـ أين هو؟ لم لم يأت معك.؟..

ـ لا أدري.. إنه خلف البيوت هناك..

قالت فاطمة: ـ قولي له.. إننا نرفض إرجاعه.. وخذي مني هذا المبلغ..

ـ حسنا.. سأقول له..

خرجت المرأة كأنما أقنعها المبلغ الذي أعطتها إياه فاطمة.. علق سعد:

ـ يبدو أن أحداً أنبّه على التفريط بالمخطوط..

ولكن الطرق على الباب عاد من جديد وحين فتح محمد الباب اندفع شاب إلى الداخل:

ـ أنا آسف.. اسمي سالم.. أنا من أرسلت المخطوطة.. جدّتي كادت تقتلني وقد بحثت بين أغراض جدّي فلم تره..

ودخلت سيدة عجوز وراءه:

ـ نعم.. كاد يقتلني حين علمت بما فعل، اعتقدته أتلفه.. الحمد لله أنه أرسله لك يا فاطمة يا ابنتي..

ـ الخالة (ورقاء) تفضلي، أرجوك..

قال محمد مرحَباً ـ كيف حالك يا ورقاء؟

ـ أنا بخير.. ولكني أريد استعادة المخطوطة.. إنها وثيقة تدل على هويتنا التي تعود جذورها إلى الماضي البعيد..

رجتها فاطمة: ـ اجلسي قليلاً.. أنت وحفيدك..

قالت ورقاء موضحة: ـ سالم. يعمل في الشرطة السريّة..

قال محمد معتذراً: ـ أنا آسف يجب أن أخرج الآن لدى موعد مع المحامي لن أطيل غيابي.. اعذريني يا ورقاء"..

ـ لا بأس يا محمد. يمكنك الذهاب وأعان الله إبراهيم في محنته..

خرج محمد معتذراً قالت فاطمة معرفة بسعد ولينا:

ـ الدكتور سعد، وزوجته لينا، من سورية...

ـ تشرفنا.. هه.. أصول جدي الأكبر من بلاد الشام.. المخطوطة تدّل على ذلك..

قالت فاطمة وهي تقلّب المخطوطة:

ـ وكيف حفظتها بهذا التماسك حتّى الآن؟

ـ أنا أعمل في ترميم المخطوطات.. وهذا ما أفادني كثيراً..

**

الفصل الخامس
(داخل نفق الزمن)

- 1 -

فوجئ سعد أن ورقاء تعرف الدكتورة ليلى الحمدان، وأن لديها معلومات جديدة عنها.

وتمنى لو يستطيع أن يحتفظ بصورة عن المخطوطة.. التي أدهشته بتفاصيلها عن رحلة الفتية الأغرار من الأندلس نحو الأرض الجديدة..

ـ لم تقولي يا خالة. ما الذي جعل حفيدك سالم يسارع للخلاص من المخطوطة؟

ـ هو يعمل في الشرطة السريّة، ويرى دوريات التفتيش التي تفتش دور الناس وممتلكاتهم بحثاً عن أدلة تتوهمها بارتباط من تفتش دورهم بهجمات الحادي عشر من أيلول...

قالت فاطمة: ـ كما حدث لعمي إبراهيم المعتقل للتحقيق، بسبب علاقاته الكبيرة مع العرب ..

ـ وهذا ما جعل سالم يخاف من وجود هذه المخطوطة المكتوبة بالعربيّة... وقد حاول إقناعي بالتخلص منها، ولكنني تذكرت كلمة للدكتورة ليلى الحمدان، من أن هذه المخطوطة (جزء هام من شخصية عائلتي)

سألها سعد: ـ اسمك غريب، وغير مألوف هنا.؟.

ـ أطلقه عليّ والدي تيمناً بجدتي البعيدة ابنة (سليمان بن الحارث

الطائي) أحد الفتية الأغرار الذين أتوا هنا قبل ألف عام....

ـ إنها معلومة جديدة، أضافتها الدكتورة ليلى لوثائقها..

ـ بل لديها صورة طبق الأصل من هذه المخطوطة.. الدكتورة ليلى سيدة لا أستطيع أن أصف ذكاءها وتهذيبها وحبها لنا.. كنا نرى فيها الماضي المتألق الذي عاشه أجدادنا مع قبائلنا المنتشرة على الساحل الشرقي لهذه البلاد...

ـ ألا تتردّد عليك أحياناً؟

ـ منذ أكثر من عامين لم نرها ولم نسمع أخبارها.. أنا لا أعيش حياة طبيعيّة منذ اختفائها الغريب.. أعاني الأرق والقلق، والخوف.. وأتوقع دوماً أن أسمع خبراً سيئاً عنها.. لا تتصوّر يا بني كم هي كبيرة وقريبة إلى قلبي.. لقد حوّلت حياتنا إلى حياة لها معنى..

ـ كنت تقابلينها كثيراً؟

ـ كما قلت لك، لقد حولت حياتنا إلى حياة لها معنى.. أصبحنا نرى أننا، نحن الذين نشكل جزءاً هاماً من الهنود الحمر، لنا تاريخ، لنا حضارة متميّزة، لقد عرفتنا على بصمات الحضارة القديمة لدى قومنا، هنا، وأكدّت لنا أن جدي سليمان حين أتى إلى هنا مع رفاقه، اكتشف الكثير من حضارتنا القديمة، وأضاف إليها الكثير من إنجازات العرب المسلمين الذين ارتبطوا بنا، وتزاوجوا معنا..

ـ كل هذه من ثمانية عشر شاباً فقط، ركبوا البحر ووصلوا هنا وفعلوا كل هذا التغيّر؟

ـ ربما لم يكن عددهم ثمانية عشر فقط، صحيح أن الذين كانوا مسؤولين عن الرحلة ودفع تكاليفها وقيادتها هم هؤلاء الفتية الأغرار، ولكن ربما كان يرافقهم بحارة متمرسون ساعدوهم في قطع المحيط..

علق سعد: ـ من لشبونة أم من مالقة؟ الذي أذكره أن الدكتورة ليلى أكدّت أنهم انطلقوا من مالقة على البحر المتوسط..

قالت ورقاء: ـ ربَّما بنيت السفينة وجهزت في مالقة، وانتقلت إلى لشبونة على المحيط لتجميع البحارة والعاملين فيها من كل أنحاء الأندلس.. قبل إقلاعها من لشبونة؟

سألها: ـ أنا آسف يا خالة قلت إنك تعانين الأرق والخوف منذ اختفاء الدكتورة ليلى؟

ـ نعم.. اعتقدت في البداية أن اختفاءها بسبب السفر والبحث عن أدلّة

ومصادر جديدة.. ولكن بعد عدة أشهر بدأنا نتلقّى اتصالات غريبة في منزلنا..

- اتصالات غريبة؟

- نعم.. كان رجلاً أجش الصوت لئيم النبرة. يقهقه في الهاتف وهو يسمعنا صوته الكريه؟

***

- تريدون أن تستعيدوا الذاكرة.؟.. لن تهنؤوا بذلك سترون منّا الويل أيها الحمقى..

- من المتكلم؟ من تريد؟ أنت مخطئ بالرقم...

- لا لست مخطئاً بالرقم.. ليلى التي تشحنكم لن تروها ثانية.. لن تروها ثانية..

وكان يقفل السماعة مقهقهاً بغلظة..

***

- أعاد الكرّة عدة مرّات بنفس قهقهته الكريهة.. لا أذكر يا بني أنني بدأت أشعر بالتوتر والقلق، وخاصة على الدكتورة ليلى...

قال سعد: -يبدو أن الدكتورة ليلى ملاحقة من جهات يهمها أن لا يظهر بحثها الموثّق إلى الوجود..

همست لينا: - أتعلم يا سعد، كنا مقصرين بشكل كبير بحقها؟

تنهدت ورقاء: - أنا آسفة يا ابنتي. سمعت كلامك.. كلنا نشعر بالتقصير.. ليلى إنسانة نادرة في زمن، عزّ فيه وجود امرأة تحمل راية البحث في جذور أمتها، لتظهر للوجود حقائق جديدة غائبة بشكل آخر عن العالم..

- أيمكن أن أطلع على المخطوطة يا خالة؟ أن أقلب صفحاتها هنا؟

- لا بأس يا بني، إنها مليئة بالرسوم والمخططات.. رسوم أقسام سفينة كبيرة، جميلة المنظر من الخارج.. كانت السفينة التي بدأوا ببنائها، وكان جدّي أحد مصمميها، معتمداً على خبرات أجدادي من الهنود الحمر..

***

- إنه يبدأ بالصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم.. هل أستطيع القراءة؟

- نعم ولا بأس لو رفعت صوتك.. سنصغي إليك جميعنا..

سألتها لينا: - أتعرفين العربيّة جيداً يا خالة؟

- إنها جزء من شخصيتي، رغم أنني لا أتقنها كما تتقنيها أنت وزوجك.. نحن نتكلمها فيما بيننا فقط.. وبناء على نصائح أبي وجدّي، نحن لا نتكلمها مع العرب الوافدين إلينا، إلا إذا وصلت ثقتنا بهم إلى حدّ كبير، كما هو الحال مع الدكتورة ليلى..

- وما هو السبب؟...

قالت فاطمة: - أنا سأجيبك عن ذلك يا سيدة لينا، السبب هو أن بعض العرب هنا قد يستبد بهم الفضول لدراسة أسباب معرفتنا بالعربيّة، وقد ينقلون هذه الأحاسيس والأسباب إلى المسؤولين عنهم في الدولة الأمريكية إظهاراً للولاء المبالغ به للدولة، خوف الترحيل أو غيره..

وأكدت ورقاء: - هذا صحيح.. ولأحد أجدادنا واسمه حمدان تجربة مريرة في ذلك.. عذراً سأحكيها لكم.. قبل أن تبدأ بقراءة المخطوطة يا دكتور سعد..

- لا بأس يا خالة..

- 2 -

- مع تدفق المهاجرين العرب إلى هنا أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.. قابل جدّي حمدان أحدهم وكان سعيداً بإظهار نفسه أنه يتكلم العربية جيداً.. وكان هذا الوافد يحمل اسم (أيهم)..

- أنا سعيد بلقائك يا أيهم..

- تتكلم العربية جيداً، من أين تعلمتها؟ الذي أعرفه أنّ لا معاهد لتعليمها هنا..

- من أجدادي، نحن نتوارث تعلمها منذ أمد طويل.. ربَّما منذ أكثر من (800) سنة..

- ماذا تقول؟

- نعم.. أتى العرب إلى هنا وعاشوا بيننا وتزوجوا من بناتنا..

وعلمونا ثقافتهم..

ـ هذا غريب.. لماذا لا يعرف العالم هذه المعلومة؟

ـ لا نريد ذلك. لأنَّ الأذى قد يصيبنا، ألا ترى تماثيل (كريستوفر كولمبس) في كل مكان؟

إنه رمز هذه الدولة..

ـ ولكنها بلاد حرّة قد تقبل الأفكار الجديدة؟

ـ ليس إلى هذه الدرجة..

ـ غريب أن تتكلموا عن توارث تعلم العربيّة إلى هذا الوقت؟

ـ ولماذا تقول ذلك؟ نحن لم نتوارث تعلم اللغة فقط، وإنما لدينا وثائق ومخطوطات تؤكد على أننا ننتمي بجذورنا إلى العرب، وبالتحديد إلى الفتية الذين أطلق عليهم لقب (الفتية الأغرار)..

ـ لديكم وثائق على ذلك؟ هذا جميل.. أيمكنك أن تريني بعضها.؟.

ـ لا بأس.. تأملها وادرسها هنا، لا يمكن أن نتركها معك..

ـ سأستعيرها ليوم فقط.. سأعيده إليك غداً..

قال جدي حمدان متردداً: ـ ولكنّ هذا يخالف وصية جدي، أوصانا أن لا نعيرها لأحد.. إنها جزء من تراثنا.. لا بأس أنت عربي، وستحافظ عليها جيداً..

ـ نعم.. نعم.. تأكد من ذلك، غداً في مثل هذا الوقت سأحضرها لك..

***

وأكملت ورقاء حكايتها:

ـ ولكن ذلك الرجل لم يعد المخطوطة، بالعكس لقد باعها لأحد التجار اليهود بمبلغ كبير، واختفى عن الأنظار.. وحين حاول جدّي استعادتها من ذلك التاجر بعدما عرض عليه ضعف المبلغ.. نظر التاجر إليه نظرة شماتة..

ـ أتريد أن تستعيدها؟ لا بأس.. ولكن أعطني المخطوطات الأخرى التي في حوزتك.. وسأشتريها بمبلغ كبير، وأعطيك أضعاف أضعاف ما تتأمله..

ـ ليس عندي سواها.. و هي ليست للبيع، أمدّت ذلك الرجل عليها فباعها لك..

ـ متأكد أنه ليس لديك سواها؟

ـ نعم.. أرجوك أعدها لي وخذ ما شئت..

ـ إلى هذه الدرجة هي غالية عليك؟

ـ نعم.. إنها جزء من تراث أجدادي..

قال التاجر بسخرية: ـ جزء من تراث أجدادك؟ أنت هندي أحمر ما علاقتك بالعرب؟ هل صدقت فعلاً أنهم وصلوا إلى هنا قبل كولمبس؟

ـ نعم.. المخطوطة تؤكد ذلك..

ـ فقط هذه المخطوطة تحمل البرهان على ذلك؟ إذن سأحرقها أمامك..

انفجر جدي صارخاً: ـ لا.. لا.. أرجوك.. ماذا تفعل؟

صرخ ينادي خدمه: ـ أبعدوه من هنا، ولا تجعلوه يقترب منّي..

ـ أرجوك لا تفعل ذلك.. هذا عمل إجرامي.. أنت تقتل تاريخنا..

ـ أنتم شعب بلا تاريخ، أحسنوا صنعاً بإبادتكم..

ـ يا إلهي ماذا فعلت؟ كيف أعطيت ذلك الوغد تلك المخطوطة؟

***

وأكملت ورقاء:

ـ ومنذ ذلك الحين، لم نعد نطمئن إلى من يفد إلينا ويناقشنا في انتمائنا إلى عرب الأندلس..

ـ عمل إجرامي كبير.. كيف فعلها ذلك المدعو أيهم؟

ـ ربَّما كان بحاجة للمال..

ـ ولكن الحاجة للمال لا تبرّر مثل هذا العمل الإجرامي.. هل كانت المخطوطة مهمة كهذه التي بين يدي؟

ـ ربَّما كانت أكثر أهمية.. كانت مذكرات ويوميات جدّي سليمان.. وهذه ليست ذكرياته ويومياته.. إنها تتحدّث عن صناعة سفينة.. وتروي أحداثاً قليلة عن معارك خاضها جدّي مع ساحر القبيلة وأحد الفرسان

الذين يؤيدونه. وقصة إحدى رحلاته لاستكشاف تراث أجدادنا من الهنود الحمر..

- يمكنك البدء بالقراءة يا سعد..

- لا بأس..

-3-

((هذا ما خطّه سليمان بن الحارث الطائي أحد الفتيّة الأغرار، الذي استقر ورفاقه بين أفراد هذه القبيلة التي استقبلتنا وفتحت لنا بيوتها وأكواخها، رغم أنف كاهنها وبعض الرجال الملتفين حوله..))

***

أنهيت مخططات السفينة بدقّة، وبدأ الرجال يستعدون للبدء ببنائها، كانت سفننا التي أوصلتنا إلى هنا قد هوجمت من بعض رجال الكاهن حيث فتحوا فيها ثغرات كثيرة وأغرقوها، ونحن على الشاطئ دون أن ننتبه.. رغم أنني حذرت الرجال من تركها دون حراسة..كان أحمد قد وقع في غرام (ديبا) ابنة زعيم القبيلة.. أصدقكم القول أن الفتيات هنا جميلات بل وفاتنات، يتعلقن بأزواجهن تعلقاً كبيراً وتظهر العاشقة عشقها لحبيبها ببساطة، وهي تخلص له.. وقد قالت لي إحدى العجائز هنا عن تلك الظاهرة..

((نحن يا بني يا سليمان، بمحبتنا وإخلاصنا، نجبر الرجال على مبادلتنا الإخلاص والوفاء.. من الصعب أن تجد رجلاً غير مخلص لزوجته أو لحبيبته، بسبب إخلاص النساء عامة هنا للرجال بلا استثناء. المرأة هنا محترمة، يقدرها الجميع، ولا يقرب الرجل امرأته في فترة حملها أو رضاعتها إنها عادة اعتدناها منذ سنوات بعيدة، إنها جزء من تراثنا..))

- في كل قبائل الهنود الحمر؟

((نعم يا بني.. نحن نملك حضارات قديمة باهرة، لا تزال آثارها في أمكنة عديدة من هذه البلدان الواسعة.. دعاكم الزعيم أكثر من مرّة لمرافقته في رحلاته الطويلة، وهو يتفقد قرانا البعيدة ومناطق سكنانا.. قبيلتنا الكبيرة جداً تنتشر في الجبال والأودية وعلى ضفاف الأنهار.. ولعلك لاحظت قدرتنا الكبيرة على علاج المرضى بالأعشاب..))

- نعم.. نعم يا خالة..

((رغم أن طبيبكم (أبا الخير الإشبيلي) قد عالج مرضى عندنا كانت علاتهم ميئوسة.. ألن تذهبوا مع الزعيم في إحدى رحلاته؟))

ـ سنتشاور في ذلك مع بعضنا، ربَّما هذا المساء..

((أنتم تزمعون بناء سفينة كبيرة، شددوا الحراسة على الشاطئ حين تبدأون البناء، لست مطمئنة إلى الكاهن وذلك الوغد (راكان)..))

ـ نعم.. سنفعل ذلك يا خالة.. شكراً لك..

((أنتم دخلتم بيننا بالحب والتعاون، تعرفنا على مبادئكم ومعتقداتكم، وآمنا بها.. فلا تكترثوا بهذه الجماعة الضالة التي تهمها مصالحها الخاصة، واعتقدت أنكم ضربتم هذه المصالح في الصميم.. اسمع يا بني، حاول جهدك وبعض أصدقائك مرافقة الزعيم في رحلته المقبلة، لن تستمر طويلاً، عدة أيام فقط، ستستفيدون كثيراً من ذلك..))

***

كان العمل يجري للتحضير لتنفيذ المخططات التي رسمتها للسفينة، وحاولت أن أشرف على تجميع أجزائها من الخشب والحبال والمواد المعدنية.. وكنت أفكر جديّاً بتلك الرحلة مع الزعيم التي أخبرتني عنها العجوز.. وقد استشرت أصدقائي أحمد وأبي الخير وعبد الرحمن. ولم يرفضوا الفكرة، ولكنهم أكدوا أن مرافقة الزعيم ستكون مفيدة إذا ذهب معه أحدنا فقط، برفقة من يريد من البحارة وعرفوا أنني أرغب في ذلك، فوافقوا أن أذهب واصطحب معي بحارين من بحارتنا على الأقل.. وهكذا ذهبت لمقابلة زعيم القبيلة..

ـ أنا سعيد بوصولك إلى هذا القرار يا سليمان، ستتعرف على تراث أمتنا ومواطن إقامة أفراد قبائلها، وإن كنت أتمنى لو ترافقني في رحلات أطول من هذه الرحلة..

ـ ربَّما كانت هذه الرحلة هي نقطة البداية عندي..

ـ حسناً، وستصطحب معك بعض رجالك؟

ـ سأصطحب اثنين فقط.. قد يساعدانني كثيراً..

ـ لا بأس.. جهزوا الأشياء الضرورية لكم سننطلق عند الفجر في الصباح..

ـ سأكون جاهزاً بعون الله..

- 4 -

ودعت أصدقائي. واصطحبت (تامر وهايل) لمساعدتي.. وقد اصطحب الزعيم معه بعض الفرسان وبعض النساء والفتيات للإشراف على الغسيل والطبخ.. وانطلقنا من الشاطئ غرباً صوب الجبال،

مستخدمين الخيول والبغال، وتوقفنا في مساء ذلك اليوم قرب قرية تنتشر أكواخها على سفح جبل عال.. وقد لفت انتباهي وجود بناء حجري ضخم فوق قمة الجبل..

سألت الزعيم عنه فأجابني:

ـ إنه قلعة تارا، قلعة قديمة فيها الكثير من الأسرار، لا يجرؤ أحد على دخولها، يقال إن الأرواح والأشباح تسكن داخلها..

ـ ولم تفكر ورجالك بدخولها؟

ـ نحن شعب يؤمن بالأسطورة يا سليمان، وربما كان مجيئكم إلينا سبباً في التفكير بكشف الحقائق، وتمييزها عن الأوهام والخرافات، بعد أن تعلمنا منكم دروساً في التفكير الواقعي.. ولكن كما تعلم، هناك الكثير من أسرار الإنسان الغامضة، لا يستطيع الدخول إليها وكشفها، لعجزه عن ذلك..

ـ معك حق. ولكن أرغب فعلاً بدخول قلعة (تارا) ربّما لكشف حقيقة أسرارها إن استطعت.. هل هي مكن مقدس بالنسبة لسكان القرية هنا؟

ـ أعتقد ذلك، وإن كنت أخمّن أنهم لا يمانعون أن يجرب أحد الدخول إليها ولكن بالمقابل، لن يقدموا له أي عون..

ـ هذا لا يهم.. قد أدخل أنا وتامر وهايل فقط..

قالت كالا مندفعة:

ـ وأنا سأرافقهم يا عمي..

ـ كالا؟ أنت؟ لا يا ابنتي، أنت أمانة في عنقي بعد وفاة والدك.. لا أستطيع أن أسمح لك.. أهلها الذين جرفهم السيل كانوا أهلي، كالا مثل ابنتي، عاشت معنا..

همست: ـ تبدو قوية جريئة.. ما المانع؟

ـ هي فعلاً قويّة وجريئة بل وتعرف استخدام السيف والرمح والقوس. ولكنها في مقام ابنتي، لا أستطيع السماح لها بمرافقتك.. إن كنت مصمماً على دخول تارا..

ـ نعم.. أنا مصمم على دخول القلعة..

عادت كالا تلحّ:ـ عمي.. أرجوك.. اسمح لي بمرافقته..

ـ وأعدك أن أحميها من الخطر حتّى ولو قدمت حياتي قرباناً ذلك..

قال الزعيم: ـ أرجوك يا سليمان اعتن بها جيداً..

واستمر سعد يقرأ من المخطوطة التي كانت (ورقاء) تستمع إليها بشغف، وروى بعضاً من تفاصيل رحلة سليمان إلى القلعة.. وذهول أهالي القرية من المغامرة بدخول موطن الأرواح والأشباح والمخلوقات الخفيّة كما كانوا يسمونها..

ـ إنه يروي قصة دخوله القلعة بتفصيل مدهش..

ـ أرجوك استمر بالقراءة يا سعد..

ـ حسناً يالينا..

***

((كان دخولنا حدثاً كبيراً في عرف الأهالي هنا..))

ـ اسمعي يا كالا.. بعد جهد جهيد أقنعت الزعيم بأن يسمح لك بالانضمام إلينا أريد منك أن تلتزمي بتعليماتي بالحرف.. إنها قلعة ضخمة فيها مخابئ..

ـ لا عليك يا سليمان، سألتزم بتعليماتك..

وبذلنا جهداً كبيراً في فتح الباب الضخم..

صرخت كالا: ـ الباب ينغلق علينا..

ـ لا تخافي سنعرف كيف نفتحه حين نعود.. سنمشي معاً أنا وكالا في الأمام، وأنت يا تامر ستكون خلفنا وهايل، مباشرة..

ـ نعم يا سيدي..

كانت هناك ساحة ضخمة فيها مقاعد حجرية بشكل متدرج.. كأنها مكان لتجميع الناس..

وانبعثت أصوات طيور وزعيق حيوانات..

قالت كالا: ـ أتسمع؟ بدأت الأرواح تتحرك..

ـ ليست أرواحاً، ربَّما كان لها تفسير آخر.. الطيور؟ فوقنا أسراب من الطيور.. وهناك حيوانات تقفز حولنا.. هي ليست وهماً..

قال هايل: ـ ما رأيك يا سيدي لو ندخل هذا الباب الواسع هنا، إنه مفتوح وقد وضعت حجارة كبيرة أمام دفتيه الضخمتين.

قلت: ـ لا بأس يا هايل.. لنبدأ باستكشاف المكان خلفه..

كانت هناك درجات هابطة أمامنا.. أخذنا نهبطها بحذر.. وكانت كالا إلى جانبي..

ـ أمامنا ما يشبه النفق..

ـ لا بأس يا تامر. سنحاول الدخول فيه، استعد وهايل لإشعال المشاعل.. قد يكون الداخل مظلماً..

كان الضوء ضعيفاً.. بدا النفق في الداخل مظلم تماماً..

ـ لا بأس.. لنمض في الداخل بحذر شديد.. الجدران منقوشة بعبارات من لغة تشبه لغتكم يا كالا..

ـ إنها إحدى لغاتنا القديمة، لا أستطيع قراءتها جيداً.. ولكنها تحكي بشكل عام عن شخص يدعى (مردوك)..

ـ مردوك؟ إنه أحد آلهة الفينيقيين.. معقول؟

وبدأت تظهر بعض التماثيل.. على طرفي الطريق.. بدا النفق ضخماً وربما كانت الخيول تمر من خلاله وعلى ظهورها الفرسان.. كأننا في سبيل اكتشاف ضخم.. وانبعثت أصوات حيوانات شبيهة بالجرذان.. تندفع نحونا.

ـ لا تخافوا إن هاجمتنا سنستخدم أسلحتنا..

ـ إنها تتجه نحونا.. إنها تهاجمنا يا سيدي..

ـ استخدموا أسلحتكم وأنت يا كالا لا تخافي منها..

ـ لا تقلق يا سليمان.. هه ذيولها قوية إنها تستخدمها كسلاح أيضاً عدا عن أنيابها.. هه..

ـ قتلنا منها الكثير،إنها تتراجع.. هل نستمر بالتقدم يا سيدي؟

ـ نعم.. نعم.. انتبهوا جيداً قد نعثر على أشكال أخرى من الحيوانات، يجب أن نظل مهيئين لذلك..

ـ نعم يا سيدي..

وظهرت أبواب تطل على غرف واسعة.. أشبه بالسجون.. ولم تكن في الحقيقية سجوناً إنّما كانت أمكنة لإقامة الجنود..

دخلنا ممراً جديداً.. كان يطل على ساحة داخلية مغلقة.. كانت ساحة دائرة جدرانها مزخرفة.. في نهايتها درجان طويلان صاعدان!

- سنستخدم أحدهما.. هيا.. ليت أحدنا يعرف قراءة هذه الكتابات إنها تفسّر ألغازاً كبيرة. وانبعث صوت يهدر كأنه يجيب عن سؤالي..

- حول ماذا يا سليمان؟

- من المتكلم.. لا أرى أحداً..

- أكمل صعود الدرج ستراني..

((كان كهلاً بلحية بيضاء، وحوله مجموعة من الناس يجلسون في قاعة كبيرة يتسرب إليها الضوء من نوافذ في جدرانها العالية.. لم تكن القلعة خالية، كانت مسكونة بأناس يمارسون حياتهم العادية، وينتقلون من خلال الظلام الشديد من أبواب سرية من القلعة، لقضاء حاجاتهم الضرورية وإحضار المؤونة وما يحتاجونه.. وقد يستمرون أحياناً لعدة أشهر دون أن يخرج أحدهم من القلعة.. كانوا يتمتعون ببياض البشرة والعيون الملونة.. وحين أخذت أستفسر منهم عن أصولهم، عرفت أنهم من الفينيقيين الذي استوطنوا المنطقة.. وبنوا تلك القلعة الكبيرة.. وقد تجمّع زعماء القبائل لقتالهم ورفض اندماجهم، فأغلقوا القلعة على أنفسهم وعاشوا حياتهم، ولم يجرؤ أحد على الإقتراب من القلعة، لأنهم كانوا يعاقبونه بشكل يظهر أن العقاب ليس بشرياً..))

***

لم أستطع البوح لأحد بما شاهدته في القلعة، ولكني كتبته بالتفصيل في مخطوطة تتحدث عن السوريين القدماء الذين قدموا إلى هذه الأرض وعاش بعضهم فيها.. وقد جعلتني مرافقتي لـ (كالا) خلال تلك الرحلة، أشعر بحب جارف نحوها..

- 5 -

قال سعد:

- هنا انتهت الكتابة.. وليس سوى الرسومات

علقت ورقاء:

- ذلك الوغد الذي وفد إلينا (أيهم) قد أضاع شيئاً نفيساً عندنا.. عندما باع تلك لذلك التاجر حرقها أمام جدي حمدان..

قالت لينا:

ـ لا شك أن معلومات هذه المخطوطة قد أفادت الدكتورة ليلى كثيراً..

ـ بالطبع يا سيدتي.. قلبي عليها تلك السيدة العظيمة ترى هل هي حية أم ميتة؟ ليتني أعرف الجواب..

قالت فاطمة:

ـ ربَّما هي مختبئة في مكان ما، تخاف من الظهور وتخاف من الاتصال بنا حتّى لا تعرضنا للخطر..

تنهدت ورقاء بحرقة:

ـ ربَّما.. وربما أنهوا حياتها، كما أنهوا وأتلفوا تلك المخطوطة التي باعها لهم أبيهم قبل أكثر من مائتي سنة..

ـ ربَّما أنت محقة يا خالة ورقاء..

قال سعد:

جئت إلى هنا أبحث عن أثر يوصلني إلى الدكتورة ليلى، وقد شعرت أنني أهملت الاتصال بها لسنوات، فلم استطع الوصول إلى معلومة تنبئني عن مكانها، أو عن مصيرها..

قالت لينا متألمة:

ـ عملنا في هذه البلاد يستنزف قوتنا، من الصباح إلى المساء، وحين نعود نكون مجهدين، لا نصدق أن نستريح في يومي العطلة..

أيدتها ورقاء:

ـ معك حق يا ابنتي.. هه.. فاطمة تعرف عنواني ورقم هاتفي، إن رغبت يا دكتور سعد بزيارتنا والتعرف علينا، سنكون سعداء بك.. أنت وزوجتك لينا..

ـ شكراً لك يا خالة. سنزورك بالتأكيد، وسيسعدني ذلك، أنتم بأصولكم العربية، تشدوننا لتكوين صداقات متينة معكم..

تنهدت بحزن:

ـ نفس عبارة الدكتورة ليلى. (صداقات متينة).. أمَّا عن سالم حفيدي الذي يجلس صامتاً هنا، فلي حساب عسير معه..

قال سالم:

- لماذا يا جدتي مادمت استعدت المخطوطة.؟..

- لو لم توصلها لفاطمة، لكانت ضاعت للأبد؟

- لأني لو لم أثق بفاطمة لما جئتها بها.. لا تعلمين يا جدتي كم أعاني منذ الحادي عشر من أيلول.. وأنا أرى ما يفعلونه من اضطهاد العرب والمسلمين هنا.. خفت أن ينتقل هذا الاضطهاد إلينا، وربما عثروا بتفتيشهم لبيوتنا على مجلات وكلمات عربية، فيقبضون على من في البيت، كما فعلوا مع الدكتور إبراهيم عم فاطمة..

ـ لن يصلوا إلى هذا الحدّ بالشك بنا.. الدكتور إبراهيم - نظراً لاختصاصه في التاريخ، كان يقابل الكثير من العرب والمسلمين، لذلك وضعوا دائرة من الريب حوله.. قاتلهم الله..

- أنا آسف يا جدّتي، أعلم أنّني سأصبح معزولاً ولن يكلمني أحد منكم لأيام وربما لأسابيع ولكني آسف فعلاً، لم أعرف أن هذه المخطوطة لها هذه الأهمية..

ـ أنت تعمل مع شرطتهم السرية.. تستطيع إبعاد أي شك بنا بل وتستطيع المساعدة بشأن إبراهيم..

انفتح الباب ودخل محمد:

- لا داعي لذلك، إبراهيم معي الآن.. تفضل يا أخي.. لدينا ضيوف تعرف بعضهم.. الدكتور سعد وزوجته من بلاد الشام.. من سورية..

- تشرفنا.. كيف حالك يا ورقاء؟

- الحمد لله.. قلقنا عليك..

- أحضر المحامي إثباتات أنني بعيد عن الاختلاط بالأصوليين هنا.. ومعظم من قابلتهم، كانوا أساتذة جامعات يزورون البلاد، أو شخصيات رسمية..

سأله سعد:

- يا دكتور إبراهيم، نحن قلقون على الدكتورة ليلى.. لا خبر عنها؟

ـ الدكتورة ليلى، امرأة قوية، لا أعتقد أنهم ينجحون في إيقاف مشروعها.. هي ليست من الغباء أن تضح نفسها في طريق عيونهم وملاحقاتهم..

- يعني أنت مع رأي فاطمة، أنها أخفت نفسها في مكان بعيد عن محاولاته لحصارها.؟.

ـ يمكن.. حماها الله هي سيدة غير عادية..

أصرت فاطمة على دعوتهم على العشاء، وقد قاربت الساعة السابعة مساءً.. ولم تترك ورقاء وحفيدها سالم يخرجان.. رغم أن "سالم" تعلّل بأن عمله يبدأ في الثامنة مساءً..

ـ تتناول العشاء معنا وتذهب.. العشاء شبه جاهز..

ـ سيأتي العشاء في السابعة والنصف، طلبناه من المطعم المجاور..

ـ قد أتأخر يا دكتورة فاطمة..

ـ لا تقلق يا سالم.. مكان عملك ليس بعيداً عن هنا، وليس هناك ذلك الازدحام المروري الذي كان من قبل..

ـ حسناً .. سأخرج نحو الثامنة إلاّ ربع.

حاولت فاطمة إقناع الجدة أن تسامح سالم ولكنّها كانت شديدة العناد..

**

الفصل السادس
(البحث عن المصير)

- 1 -

رغم أن الوجبة الرئيسية كانت من المطعم المجاور، إلا أن فاطمة قدمت لهم صحناً ضخماً من سلطة خضراوات ذكرت سعداً وليَنا بتلك السلطة التي يتفنن بها أبناء البلد..

اعتذر سالم منهم وخرج إلى عمله، وبدأ إبراهيم يتكلم عندها وهم يشربون الشاي، متحدثاً عن ليلى الحمدان وآخر أخباره عنها..

قالت ورقاء متنهدة:

ـ كنت أعلم أنك تتجنب الحديث عنها أمام حفيدي، خوفاً من أن ينطق بكلمة تسبب لها الأذى..

ـ أنا لا أخاف من سالم.. ولكني لم أجد مبرراً أن أتحدّث عنها أمامه. يبقى حفيدك، وهو ينتمي إلينا..

ـ أكمل حديثك يا إبراهيم.. وماذا عرفت عنها أيضاً؟

ـ قبل نحو عامين قابلتها في منزل أحد زملائنا في الجامعة، وهو من أصل عربي واسمه بشير، هاجر جدّه الأكبر إلى هنا في أوائل القرن التاسع عشر.. كان طبيباً مختصاً بأمراض القلب.. وقد تحدثنا في مواضيع شتّى. وحدثنا عن حكايات تعرّض لها مرضاه.. فأحدهم دفن، قبل أن يستطيع الوصول إليه.. وسمع زوار المقبرة صرخاته من داخل غرفة الدفن التابعة لعائلته، فأنقذوه بين الموت والحياة.. لم أكن مهتماً بفحوى هذا الحديث، ولكن الدكتورة ليلى كانت مهتمة كثيراً.. وهي تحاورهم.. وتحاور الدكتور بشير على الأخص..

***

ـ أيمكن أن يمرّ الإنسان بمرحلة سبات أشبه بالموت لعدة أيام؟

ـ يمكن.. الغيبوبة أو (الكوما) التي يتعرّض لها مريض أحياناً، قد تستمر سنوات قبل أن نعلن وفاته.. ولكن من يستيقظون بعد غيبوبتهم الطويلة، لا يشكلون سوى نسبة قليلة من الناس.

ـ أيمكن أن تجرّب السبات على شخص لا يشتكي من المرض؟

ـ هذا صعب.. ولكن بإمكان بعض من يتمتعون بقدرات خارقة أن يفعلوها..

ـ وما هي الشروط اللازمة لذلك؟ قل لي أرجوك يا دكتور بشير..

ـ إنها شروط تتعلق بترك الكحول وأكل اللحم الحيواني والتدخين وممارسة الجنس، وهي شروط مادّية.. وهناك شرط آخر، معنوي، هو أن يحبّ الإنسان كل الناس، ولا يحقد على أحد، ولا يحسد أحداً..

ـ كيف بالإمكان التدريب عليها؟ أنا أتكلم بشكل جدي..

ـ هناك الكثير من بيوت (اليوغا) هنا.. تستطيعين زيارة أي منها..

سألتها: ـ أتفكرين بممارسة اليوغا.؟

ـ إنها رياضة تهذّب النفس، لم لا أجربها فعلاً؟

ـ لتدخلي في سبات لفترة طويلة؟ أم لشيء آخر؟

ـ سأمارسها كرياضة، دون الدخول في تفاصيل قدراتها.. هه قل لي يا دكتور إبراهيم، كيف استنتجت أن الفينيقيين وصلوا إلى الشاطئ الشرقي للبرازيل وفنزويلا والمكسيك وأمريكا وكندا؟

ـ ليست استنتاجات، إنها حقائق، كل المعلومات تؤكد أن في تلك المناطق آثاراً فينيقيّة، عليها عبارات فينيقيّة كنعانية..

ـ فعلاً إنها حقائق، أنا زرت تلك المناطق وصورت الآثار وحلّلت الصور وتوصلت إلى نتائج باهرة.. سأنشرها في كتابي الضخم الذي أجمع وثائقه منذ سنوات..

ـ أنت باحثة مجتهدة.. ترحلين ببساطة إلى أي مكان تتوقعين أن تجدي فيه عوناً لبحثك..

ـ ورغم ذلك.. هناك من يحاولون إيقاف هذه الأبحاث التي أقوم بها..

- ماذا تقولين؟ هل يضايقك أحد؟

- استلم رسائل تهديد مجهولة المصدر، على موقعي في الإنترنت تصلني يومياً أكثر من عشر رسائل، ويسمعونني جملاً مخيفة في الهاتف " لن تدعك تهنأين ستصلك ولو كنت في أطراف المعمورة". أو "من تعتقدين نفسك؟ إنها نتائج ممنوعة من النشر.. أنت تحت رحمتنا" ورغم قدرتي على التخفّي والتنقل بسرعة أنا أشعر بهم حولي..

- من هؤلاء؟ ألديك فكرة عنهم؟

- ومن لديه المصلحة في إيقاف أبحاثي، وإزاحتي من الطريق؟ بالطبع هم الأعداء الذين نحاربهم ويحاولون النيل من تاريخنا وتراثنا، ويحاولون احتلال أرضنا والتمدد في رقعتها..

- يا إلهي، أنت تتعذبين، هل أستطيع تقديم أية خدمة لك؟ أنا جاهز لذلك بكل جوارحي..

- شكراً لك يا إبراهيم.. أنا قوية، وأستطيع حماية نفسي لا تقلق..

تنهد إبراهيم بحرقة وهو يقول:

- ذلك كان آخر لقاء معها.. وقد اتصلت بي عدة مرات بعد ذلك بالهاتف تطمئنني على أحوالها..

قال سعد بحزن:

- هي تعرف أعداءها جيداً.. ترى أين هي الآن؟ أرجوك إن سمعت خبراً عنها أنت أو فاطمة أو محمد أو ورقاء، أخبرنا فوراً.. لديّ نقال دولي، حتى ولو كنت مسافراً إلى أية بلد، سأستقبل هاتفك..

- إن شاء الله.. وأتكلم بالإنابة عن الموجودين.. كلنا قلقون عليها، ونتلهف لسماع أخبارها، وسنوافيك بأي خير يردنا دون تردد..

- بارك الله فيك يا إبراهيم.

- 2 -

ودّعهم سعد وزوجته، وهو يشعر بالحزن لمصير ليلى الغامض.. ولفتت نظره سيارة تحركت خلفه وهو يخرج من ذلك الحي الشعبي.. لم يتكلم مع لينا حول ذلك مخافة إقلاقها، بل استمر يسير بشكل طبيعي في الطرقات الضيقة، والسيارة وراءه على بعد أمتار..

وحين خرج للشارع العريض وزاد من سرعته، زادت السيارة من سرعتها.. أكله القلق.. ولحظت لينا شروده..

ـ تفكر بمصير الدكتورة ليلى؟

ـ نعم.. نعم.. أنا منزعج من نفسي لأنني لم أحاول الاتصال بها خلال كل تلك الفترة..

ـ لا تحاول لوم نفسك يا سعد. نحن معذوران، عملنا عطّل علينا الكثير من الاهتمام بهذه القضايا..

ـ لا بأس.. كان مجيئنا اليوم إلى هذه العائلة، مثمراً.. تعرفنا على الكثير من المعلومات التي كانت مجهولة بالنسبة إلينا..

مازال ذلك الوغد يلاحقه.. وكأنّما شعرت لينا باضطرابه:

ـ أنت تنظر في مرآة السيارة كثيراً.. خير؟ أهناك من يلاحقنا؟

ـ لا.. لا.. ليس هناك أحد يلاحقنا.. ثمَّ لماذا تفترضين مثل هذا الافتراض يالينا؟

ـ لأنني أرى سيارة مجهولة تلاحقنا فعلاً، من المرآة الجانبيّة هنا..

ـ لو كانوا يريدون شيئاً منّا لأوقفونا؟

ـ وما أدراك أنهم لن يوقفونا؟

ـ سأحاول تضليلهم.. اربطي الحزام جيداً..

وانطلق مسرعاً لينعطف إلى طريق جانبي. ولكن لينا قالت بعد قليل:

ـ مازالت السيارة خلفنا.. ربَّما كانت سيارة شرطة..

ـ أو سيارة شرطة سريّة، فلا أرى علامة على أنها من سيارات الشرطة المعروفة بضوئها وصفارتها، وعدم وجود أغطية (شافّة) على الزجاج تمنع الإنسان من أن يرى ما بداخلها..

ـ السيارة التي تلاحقنا لا يظهر أحد داخلها..

ـ أي أنها مزوّدة بأغطية شافّة؟ هه.. وماذا سنفعل ؟ أنت لا تتجه إلى المنزل كما أرى؟

ـ أنا خائف أن يباغتونا بمعرفة المنزل..

ـ أتعتقد أن للموضوع علاقة بأبحاث الدكتورة ليلى؟

ـ لا أعرف.. السيارة تقترب منا.. سنتوقف على الإشارة.. هناك من يحاول التلويح لنا.. من خلف الزجاج..

وفعلاً كان هناك من يلوح لهما ميّزاه بعد لحظات:

- إنه سالم حفيد العجوز (ورقاء) ماذا يريد منا؟

- الحمد الله.. سأتوقف على اليمين بعد الإشارة حيث يشير إلينا..

أوقف السيارة فخرج من سيارته نحوهما..

- كيف حالك يا دكتور؟ أخفتك قليلاً؟

- بل كثيراً.. أرعبتنا يا سالم..

- أنا آسف.. حين خروجي من العشاء في بيت الاشبيلي، لحظت بعض الرجال يدورون حول سيارتك.. كانت تبدو على وجوههم سمات القسوة، خفت عليك، فاستأذنت من رفيقي في الدورية، أن أرى الأمر.. وحينما خرجت من منزل الإشبيلي، اختفى الرجال... وتوقعت أن يلاحقك أحد.. ولكن الحمد لله كل شيء على ما يرام..

- شكراً لك يا سالم..

- هذه هي بطاقتي، إن حصل لك شيء، اتصل بي في أي وقت، سأحاول مساعدتك بكل جهدي..

حياهما وعاد إلى سيارته ينطلق بها بعيداً..

علق سعد:

- فيه الخير سالم هذا.. يبدو أنه يشعر بندم شديد على إحضاره المخطوطة إلى فاطمة بتلك الطريقة الغريبة..

- سنتجه إلى البيت الآن.. أشعر بالتعب..

- كان يوماً حافلاً..

- سأسجل كل ما سمعته، في يومياتي، قد يفيدنا ذلك في المستقبل..

- 3 -

وصلا إلى البيت، وبعد أن جلسا قليلاً يتتبعان أخبار التلفاز والحشود العسكرية التي تستعد لغزو تلك البلاد الشرقية، رن جرس الهاتف قربهما..

رفع سعد السماعة ليسمع صوتاً نسائياً يحدثه بالإنكليزية المكسّرة قليلاً..

ـ وجدت رقمك على مخزون جهاز الهاتف.. لماذا اتصلت بي؟

ـ إنه رقم لصديق قديم رأيته بين أوراقي، أحببت أن أطمئن عليه..

ـ صديق قديم؟ أنا أملك هذا الرقم منذ عشرين عاماً..

ـ آسف.. ربما كنت مخطئاً..

ـ انتظر.. لا تقفل السماعة.. اسمي (خوانيتا) أعمل بالآثار.. ما هو اسمك؟

ـ اسمي سعد، أعمل في الجامعة قسم الفلك..

ـ الجامعات هنا كثيرة، في أي جامعة منها تعمل؟

ـ آسف، ليس من داعٍ أن أعطيك وصفاً لمكان عملي..

ـ بل أنا (الآسفة).. من أعطاك هذا الرقم؟ ولماذا اتصلت بي؟

ـ ربما أخطأت في كتابة الرقم.. أنا آسف.. تصحبين على خير..

ـ انتظر لا تقفل السماعة.. أنت من سورية؟

ـ نعم.. نعم.. كيف عرفت؟

ـ لأن من أعطاك هذا الرقم هو أو هي من تلك المنطقة..هه؟ الدكتورة ليلى الحمدان؟

ـ الدكتور ليلى؟ تعرفينها؟

ـ بالطبع هي أعز صديقاتي..

ـ ما أخبارها؟ أين هي الآن؟ نحن قلقون عليها، أقصد كل أصدقائها..

ـ إنها، كما أعتقد، بخير.. منذ زمن طويل لم أرها.. منذ ما يقارب العامين..

ـ ما الذي يدفعك للقول إنها بخير.؟.

ـ معرفتي بها إنها بارعة شديدة الذكاء..

ـ أيمكن أن نلتقي يا خوانيتا؟ سنتحادث في موضوع ليلى، إنه يهمني كثيراً..

ـ لا بأس.. يمكننا أن نلتقي.. ستأتي وحيداً أو مع زوجتك.. حكت لي

ليلى عنكما كثيراً. انتظرت كثيراً أن تتصلا بي من قبل..

ـ ربما قصّرنا في ذلك، ولكن لا بأس.. ما رأيك لو نلتقي غداً؟

ـ لا بأس.. سأعطيكما عنوان مقهى منعزل يمكننا أن نتكلم فيه على راحتنا..

ـ حسناً..

* * *

كانت خوانيتا أرملة إسبانية في الخمسين من عمرها، توفي زوجها إثر مرض عضال، ويعيش ولدها الوحيد في (واشنطن) كخبير في أجهزة الاتصالات..

وكانت متفرغة لأبحاث الآثار والمخطوطات، وقد تعرفت بليلى وتعلّقت كل منهما بالأخرى.. ورأت خوانيتا في ليلى أنموذجاً للباحثة الصابرة الشجاعة التي تضحي بكل شيء للوصول إلى هدفها..

ـ قلت إنك تعتقدين إنها بخير؟ وفسرت ذلك لي بأنك تربنها امرأة بارعة شديدة الذكاء.. أهذا هو مبرر اعتقادك أنها بخير؟

ـ يعني.. تقريباً.. لليلى شخصية أخرى قد لا تعرفانها بها..

ـ وما هي؟ ما هي هذه الشخصية؟

ـ إنها تعتمد على القوى الخفية في الهروب والزوغان.. ليلى تمتلك قدرات كبيرة.. إنها ماهرة في الدخول في السبات.. ماهرة في تخفيض عدد نبضات قلبها وحبس الدم عن بعض أعضاء جسمها..

ـ آه.. تذكرت أنني تحادثت ولينا معها حول هذا الموضوع، أتذكرين يا لينا ذلك الحديث في الجزيرة التي اضطرت طائرتنا إلى الهبوط قربها؟ كان حول القوى الخفيّة والحاسّة السادسة.. والتخاطر عن بعد..

قالت لينا: ـ آه.. أذكر ذلك جيداً.. ولكن لم تتصل ليلى بأي معارفها حتى الآن، مادامت تعتمد على قواها الخفيّة في الاختفاء؟

وأضاف سعد: ـ ولم لم تترك أثراً من أنها ما تزال حيّة؟

ـ أنا لا أعرف الإجابة عن هذين السؤالين.. ولكني مقتنعة أن ليلى بخير.. وستتصل بي فجأة، أو تقرع عليّ الباب فجأة..

ـ مادمت صديقتها إلى هذا الحدّ، ألا تعرفين أولئك الناس الذين يهددونها أو يطاردونها؟

ـ بالطبع أعرف شيئاً عنهم، وليس بالكثير... إنهم جماعة تحاول السيطرة على العالم، على التاريخ والجغرافيا والبشر والحجر.. أموالهم لا يمكن حصر ضخامتها، وهم يسيطرون بها على كل شيء عندنا هنا.. على الإعلام والثقافة والتعليم والسياسية.. إنهم أقوياء يسيطرون حتى على مسيرة الانتخابات مهما كان نوعها..

ـ ازدادت الأمور تعقيداً إذن؟

ـ ليس إلى هذا الحدّ، إنهم واضحون في تحركاتهم.. فئة تعتبر نفسها متميزة عن باقي البشر وتحاول أن تسيطر بقبضة حديدية على العالم.. والدول والحكومات تجاريها وتساعدها لتضمن بقاء زعماء تلك الدول والحكومات، لفترة أطول..

ـ أرجوك يا خوانيتا أوضحي أفكارك حول الدكتورة ليلى كيف تريدنها تستخدم قواها الخفية في الانفلات من مطارديها؟

ـ أعتقد أنها منزوية في مكان لا يعرفه أحد.. ربما كان في منطقة مقفرة أو كهف أو داخل قبو مغلق لا يلفت النظر، وهي في مرحلة سبات، دخلتها عن رغبة وقد تستيقظ منها في وقت معين ربما حددته لنفسها..

قالت لينا:

ـ هذا أشبه بالحلم.. من الصعب الاقتناع بصحته..

ـ ليس مستحيلاً يا لينا، جرّبته ليلى في بيتي عدّة مرّات وكانت تنجح في إيقاظ نفسها، جربته ليوم ثم ليومين، ثم لخمسة أيام ثم لعشرة أيام، ونجحت نجاحاً فائقاً.. جسمها رقيق، وتمارس اليوغا بانتظام.. هي لا تأكل اللحم ولا تشرب الكحول أو تدخن.. هي امرأة شفافة خارقة..

ـ لست مطمئناً إلى هذا التحليل.. منذ عامين لم يرها أحد.. أمعقول أن تدخل في السبات لعامين.. هذا سينهك الخلية الحيّة، وربما قد يميتها..

ـ أنا لا أعتقد أنها تدخل في السبات لفترات طويلة، هي تستيقظ وتنام بعد راحة وطعام ليومين أو أكثر، ثم تنام وتستيقظ من جديد.. وهكذا..

ـ ولماذا هذا الهروب؟

ـ هو ليس هروباً من مواجهة، وإنما هروب نحو كشف أسرار العالم، وعدم تمكن الأعداء من الوصول إليها وتعطيل أبحاثها، أو ربما إجهاض هذه الأبحاث والتخلص منها..

ـ لست أميل إلى هذا الرأي، إلاّ إذا أخبرتك ليلى بخطتها فعلاً..

ـ لم تخبرني بخطتها، ولكنها رددت على مسمعي كلاماً من هذا النوع.. قالت لي..

((سيكون السبات هو المحرّك الرئيسي لرحلات الفضاء القادمة))

ـ وكيف؟

((سيدخلون في توابيت وثيرة خاصة تنغلق عليهم وينامون طويلاً..))

ـ تنويم عن طريق أجهزة معينة؟

((نعم.. أنا أستطيع الدخول في سبات دون عون أحد.. ولكن دون تدريبات شاقة لا يستطيع الإنسان أن يروّض جسمه لذلك))..

ـ فعلاً قد يكون رواد الفضاء محتاجين للنوم لأيام وربما لأشهر في ورديات متعاقبة وهم يجتازون الفضاء نحو كوكب بعيد، يحاولون استكشافه..

((إذن ما الذي يمنع إنساناً من الدخول في السبات طويلاً، ليستيقظ في عصر آخر..؟.))

ـ دون أن تتأثر العضوية الحيّة؟ هذا محال..

((إذن الحلّ هو السبات الجليدي، أي النوم بتبريد الجسم لفترة طويلة لحرارة معينة لا تؤذي الخلايا))..

ـ لم يصل الإنسان بعد لمثل هذه الاختراعات.

((أعتقد انه وصل.. وإن لم يظهر كشفه للعالم.. أعرف عالماً كبيراً يعمل في هذا الموضوع منذ سنوات، وقد نجح ببراعة في تطبيق السبات على القطط والفئران وربما ستنجح تجاربه على الإنسان.. على كل حال.. أعتقد أن الإنسان اجتاز الكثير من العقبات ليحسّن معلوماته وكشوفاته..))

ـ هه.. وأين وصلت في أبحاثك عن الفتية الأغرار؟

((يكاد الكتاب أن يكتمل لولا بعض الثغرات التي أحاول سدها.)).

وأكملت خوانيتا حديثها وهي ترى سعد ولينا ينصتان إليها بكل

جوارحهما:

ـ من طريقة حديثها، أعتقد أنها مهتمة بموضوع السبات، وموضوع أن تجربه على نفسها تحت درجة حرارة منخفضة بعون صديقها العالم الذي اكتشف هذه الطريقة...

قال سعد:

ـ ستكون مغامرة مذهلة إن دخلت فيها..

ردت وهي تزفر:

ـ إن شاء الله تتكلل بالنجاح إن نفذتها فعلاً.. قد نستيقظ يوماً على صوتها يلعلع حولنا وهي تقول:

((دفعت الكتاب للطبع وارتحت أخيراً..))

ـ إن شاء الله سنرى ذلك اليوم..

ـ ألم تترك عندك صوراً يا خوانيتا عن وثائق حصلت عليها؟..

سألته لينا:

ـ ولماذا تعتقد ذلك يا سعد؟

تنهّدت خوانيتا: ـ إنه محق، كانت ليلى تخاف من أن يضيع جهدها، رغم أنها وضعت وثائق شديدة الأهمية في خزانة أحد المصارف.. ولكنها وزعت صوراً من وثائقها على بعض الأصدقاء المقربين، ولأنني وحيدة، لم تترك عندي شيئاً وأنا أحترم وجهة نظرها التي تؤكد أنه لو تسرب لمطارديها شيئاً عن صور وثائق تركتها هنا.. ستكون حياتي في خطر.. ولكنـي لا أستبعد هذه الفكرة، أن تضع بعض الصورة عند أصدقائها المقربين..

- 4 -

تناول سعد ولينا الغذاء بصحبة خوانيتا ثم افترقت عنهما على أمل متابعة الاتصال. و عادا إلى البيت، وهما يتحاوران حول فكرة السبات الجليدي، والمعلومات التي قدمتها لهما خوانيتا. لم يكن أي منهما مقتنعاً بإمكانية دخول ليلى الحمدان بتجربة سبات طويلة هرباً من عصرها، لتظهر في عصر آخر بكتابها الثمين الذي يحوي وثائق غاية في الأهمية حول اكتشاف الأرض الجديدة..

وفي ذلك اليوم تلقى سعد رسالة عبر الانترنيت تؤكد له أن حجزه للسفر إلى بلاده، قد تم مع كل الموافقات اللازمة..

كان يشعر أنه في شوق للوطن، وأن زيارته التي قد تستغرق شهرين أو ثلاثة ستكون هامة في إعادة ربطه به، وأن الوطن سيظل ينبض في القلب مع الحياة..

وبعد أن يئس وليندا من إمكانية العثور على أثر لليلى الحمدان، تركا هذا الموضوع وبدأا يستعدان للسفر، دون أن تنسى ليندا أن كل تلك اللقاءات والأحاديث بحاجة للكتابة، لتأريخ تلك الفترة الهامة من حياتها هي وسعد معاً..

واقترب موعد السفر، واستعدا له استعداداً كبيراً، واتصلا بورقاء وبفاطمة كما اتصلا بخوانيتا يودعانها.. ولا خبر من أي من هؤلاء عن ليلى..

وهكذا شعرا أن تلك القصة لم تنته وأن ليلى المختفية قد تظهر إلى الوجود ومعها قصة موثقة عن فتية أغرار عبروا بسفينتهم المحيط ليصلوا الأرض الجديدة مع بداية القرن الحادي عشر الميلادي..

يختلطون بقبائل الهنود الحمر التي صادفوها ويتزوجون من بناتها، ويؤسسون عائلات امتدت في التاريخ لتصل الحاضر بعد ألف سنة..

**

الفصل السابع
(كيف اختفت ليلى الحمدان)

- 1 -

اتجه سعد ولينا نحو مطار نيويورك في طريقهما إلى لندن حيث سيغيران الطائرة، ليتجها إلى دمشق بعد غياب دام أكثر من عشر سنوات.. كان يشعران بالتوتر والقلق والطائرة تقلع بهما عابرة المحيط الأطلسي في طريها إلى الجزيرة البريطانية..

كانت أبحاثهما في الأيام الأخيرة حول المواضيع التي عملت فيها الدكتورة ليلى، وقد استنفرا طاقاتهما في سبيل تسجيل الأحاديث التي دارت معها، ومع معارفها من الهنود الحمر وتجميع صور الوثائق التي تمكنا من الحصول عليها من بعض أصدقائها المقربين..

وكان الهدف من كل ذلك توثيق عمل الدكتورة ليلى ما أمكن، وقد شعرا أنهما يتحمّلان بعض المسؤولية عن نشر هذه الأبحاث المذهلة وفاء لذكرى تلك المرأة العظيمة.. وإحقاقاً لحق ضيّعه الإهمال وقلة الاهتمام من أحفاد الفينيقيين، والعرب المسلمين.. بمتابعة تراث الأجداد الحافل بالإبداع والعطاء، في زمن تستلم فيه قوة عظمى بلا تاريخ زمام العالم..

قضيا وقتهما في النوم والحديث حول ليلى وظرف اختفائها واحتمالات كون هذا الاختفاء مدبراً من قبلها، أم أنه اختفاء للأبد بسبب اغتيالها.. وحين هبطت الطائرة في مطار لندن بعد رحلة استغرقت (12) ساعة فوق المحيط، قضيا في قاعة الترانزيت نحو الساعتين ثم اتجها نحو بوابة المغادرة المحددة في رحلة شركة الطيران السورية إلى دمشق.

شعرا بالألفة مع طاقم الطائرة، ووصلتهما الأحاديث بالعربية، فشعرا

أنهما قريبان من الوطن، وقد لامست أقدامهما جزءاً من ترابه كما قالت لينا، منذ أن دخلت طائرة الخطوط الجويّة السوريّة، لفتت انتباه سعد:

ـ أترى تلك المضيفة يا سعد؟ ذلك الرجل يتابعها بعينيه لحظة بلحظة..

ـ لم أنتبه لذلك.. ربما هو معجب بجمالها..

ـ لا أعتقد أن المسألة تقتصر على الإعجاب.. بالتأكيد هناك شيء آخر..

ـ شيء آخر؟ لم أفهم ما تقصدين؟

ـ انظر إلى نوعية نظراته إليها، إنها مليئة بالحزن..

ـ ربما تذكره بقريبة له..

ـ ممكن.. هه يبدو أن الفتاة تحادثه..

نهض وهو يهمس للينا قائلاً:

ـ سأجلس في ذلك المقعد الشاغر وراءه.. لن أتأخر.. إنه يذكّرني بشخص أعرفه.

ـ حسناً.. سأحاول النوم أشعر بالتعب..

كان الرجل يتحادث مع المضيفة، وصلت سعد كلماته:

ـ أنت تشبهينها كثيراً يا ابنتي..

ـ إلى هذه الدرجة كنت تحبها؟ تبدو حزيناً يا عم.. هل ماتت؟

ـ لا أعلم يا ابنتي كانت ظروفها غامضة..

ـ أنا آسفة إن ذكّرتك بها.. أتريد أن تشرب شيئاً يا عم؟

ـ لا يا ابنتي لا أريد شيئاً..

ودون أن يدري سعد حيّا الرجل وقد لاحظ حزنه:

ـ أنا آسف أن أقاطع حديثك مع المضيفة..

قال الرجل: ـ لا بأس يا بني، ذكّرتني بقريبة لي.. تشبهها كثيراً..

ـ أتسمح لي بالجلوس إلى جانبك؟

- لا بأس يا بني تفضل..

- أنا الدكتور سعد أعمل في إحدى الجامعات الأمريكية في نيويورك..

- وأنا الدكتور عبد الله... أعمل في بيروت..

- تشرفنا..

تابع سعد المضيفة وهي تروح وتجيء.. وخفق قلبه حين تأمل ملامحها جيداً.. إنها تشبه الدكتورة ليلى، كما أن هذا الرجل يشبهها.. ولم يستطع منع نفسه من الكلام:

- أنت قريب الدكتورة ليلى حمدان.؟.

ردّ الرجل بذهول: - ماذا تقول؟ أتعرفها؟

قال سعد: - نعم.. أعرفها جيداً.. هي امرأة عظيمة..

- أنا أخوها.

- يا إلهي، كان يجب أن أكتشف ذلك.. أتعرف شيئاً عن أخبارها لقد انقطعت أخبارها عنا منذ نحو عامين.؟.

- آه يا بني.. هذا الموضوع يكاد يقتلنا ببطء.. ليلى اختفت دون أن تترك أثراً.. ولم أترك وسيلة إلا واستعنت بها، لأتابع أخبارها، سافرت إلى إسبانيا، إلى المغرب، إلى المكسيك إلى دول في أمريكا الجنوبية.. سألت عنها معارفها أقرانها أصدقائها.. لا أحد يعلم عنها شيئاً..

- وزرت نيويورك؟

- لا.. تكلمت مع بعض معارفها هناك، امرأة اسمها خوانيتا.. ورجل هندي اسمه الدكتور إبراهيم..

- أعرفهما جيداً.. أرجوك حدثني عن الدكتورة ليلى، عن آخر لقائها معك، عن آخر أخبارها. كانت في ذلك الحين تعد كتابها عن (الفتية الأغرار)؟

- أتعرف شيئاً عن الموضوع؟ إنه اكتشاف مذهل.. لقد آمنت بأهمية هذا الاكتشاف وسعت للكشف عن خفاياه.. وربما.. ربما كلفها ذلك حياتها..

- كيف؟ أرجوك حدثني.. لا تعلم كم هي عزيزة علي.. إنها رمز للمرأة العربية المتفوقة.. بشخصيتها القوية وثقافتها الواسعة..

- إنها قصة طويلة.. كان كتابها عن الفينيقيين و(الفتية الأغرار) قد أوصلها إلى الدخول في أصول بعض العائلات في مدينة نيويورك وإلى جنوبها حتى مدينة (أطلنطا) توصلت ليلى إلى أن تلك العائلات الهندية من أصول عربية لن أنسى ذلك اليوم الذي رأيتها فيه لآخر مرة في بيروت..

- 2 -

((كنت أجلس في البيت مع زوجتي.. أقرأ بعض الأوراق التي سربتها لي ليلى حول الفتية الأغرار.. أولئك الشبان الذين أبحروا من الأندلس في سفينتهم الشراعية، مصممين على اجتياز المحيط الأطلسي والوصول إلى الشاطئ البعيد، واثقين بكروية الأرض التي أكدت عليها خرائط الجغرافيين العرب ودراساتهم.. كانوا شباناً شجعاناً دفعتهم جرأتهم وإيمانهم بالعلم إلى المغامرة في ركوب البحر والوصول إلى الشاطئ الآخر وسط استهجان بعض الجهلة وسخريتهم، حتى أطلقوا عليهم لقب (الفتية الأغرار). حتى إنّ هناك مكاناً في لشبونة يسمونه (درب المغرّر بهم إلى الأبد)، كما أورد المسعودي في "مروج الذهب" لقد قدمت لي أوراق (ليلى) ووثائقها الإثبات على أنهم وصلوا إلى شاطئ أمريكا، وقد مات أحدهم في الطريق ودفنوه في جزيرة وسط المحيط، بعدما أقاموا فيها بضعة أيام قبل أن يكملوا رحلتهم التاريخية.. ويحكي منهم الشريف الادريسي في كتابه ((نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)) أنهم اكتشفوا بعض الجزر في بحر الظلمات.. وواصلوا الإبحار دون أن يذكر كثيراً عن تفاصيل رحلاتهم وقد اطلق عليهم لقب الأخوة المغرورين لأنهم كانوا أخوة وأقرباء وأصدقاء آمنوا بكروية الأرض..

- ونجحوا في الوصول إلى شاطئ اليابسة في المنطقة التي تقع حالياً بين نيويورك وأطلنطا..

تابع سعد كلامه وهو يتأمل استغراق الدكتور عبد الله بالحديث:

- التقيت بالدكتورة ليلى قبل سنوات.. وزرنا عائلة في نيويورك، قدم أفرادها مخطوطات كتبها أجدادهم الذين ينحدرون من أصولهم العربية.. قضيت مع الدكتورة ليلى بعض الوقت وتابعتها وهي تبحث في الوثائق والمخطوطات التي تؤكد أن أصول بعض العائلات هناك تعود للفتية الأغرار..

- هذا يسهل عليّ الرواية يا بنيّ.. لاشك أن ليلى روت لك كيف اختلط أولئك الشبان الأبطال بالسكان الأصليين من الهنود، وتزوجوا منهم وعاشوا بينهم؟

- نعم.. نعم.. يا دكتور عبد الله.. ولكن ما الذي حدث للدكتورة ليلى؟ لقد انقطعت أخبارها عنّا فجأة..

* * *

تابع الدكتور عبد الله وهو يتنهّد بحزن:

ـ قلت لك، إنني كنت أجلس في البيت أقرأ بعض الأوراق، حول (الفتية الأغرار) قالت لي زوجتي.

ـ تبدو منشغلاً تماماً يا عبد الله بهذه الأوراق؟

ـ نعم يا عزيزتي.. إنه اكتشاف مذهل للدكتورة ليلى..

ـ صحيح كدت أنسى، لقد اتصلت في الصباح وقالت إنها ستسهر معنا اليوم.. قبل أن تسافر إلى إسبانيا غداً، ومنها إلى نيويورك..

ـ معنى ذلك أنها عادت من دمشق، لابد وأن لديها الكثير لتطلعني عليه..

ـ ترغب بتناول القهوة؟

ـ ليس الآن سأنتظر حضورها.. لنشرب القهوة سوية..

وفتح الباب الخارجي ودخلت هالة ابنتي.

ـ هه.. أبي هنا؟ يبدو أنك لم تخرج اليوم؟

ـ أنا متعب قليلاً عمتك ليلى ستأتي لزيارتنا.. على العشاء..

ـ عمتي ليلى؟ إنه خبر سار.. لم تقل لي يا أبي؟ لماذا أنت متعب؟ هل أنت مريض؟

ـ لا تقلقي أنا بخير، كان رأسي يؤلمني، وقد تناولت مسكّناً فنمت لبعض الوقت، لذلك لم أخرج.. وحين استيقظت كنت أقرأ الأوراق التي تركتها عمتك..

ـ إنها أوراق مدهشة يا أبي.. إنه اكتشاف هائل.. عمتي امرأة متفوقة.. أحقاً أثبتت هذا الاكتشاف المذهل؟ الفتية الأغرار وصلوا أمريكا قبل كولمبس بنحو (500) سنة..

ـ لا تنسي يا هالة أن الفينيقيين اكتشفوا أمريكا أيضاً، وهناك آثار فينيقية على الساحل الشرقي لأمريكا.. في الساحل المكسيكي على الأخص..

ـ حكيت لي عن ذلك من قبل.. قل لي يا أبي هل انتهت عمّتي من تأليف كتابها؟

ـ يمكنك أن تسأليها هذا السؤال عندما تأتي إلينا، هي وحدها من

تستطيع إجابتك..

قالت أمها:

- هيا يا هالة الطعام جاهز.. غيري ملابسك بسرعة وتناولي طعامك..

- حسناً.. دقائق وأكون جاهزة..

كنت أقلب الأوراق وأنا أفكر: ((لو نشرت ليلى هذه الوثائق مع كتابها.. ستكون الدلائل أكثر وضوحاً.. هذه رسالة من رجل يدعى (عبد الرحمن) العبادي.. هكذا أطلق على نفسه.. أمر غريب.. إنه يحكي عن جده أحمد.. إنها رسالة طويلة كما يبدو.. أشبه بمذكرات))

وبدأ الدكتور عبد الله يروي ما جاء في الرسالة بالتفصيل كأنّه منقوش في ذاكرته:

- 3 -

((ها أنذا أتابع اليوم كتابة حكايتك يا جدي، حكايتك مع المعاناة والألم))

كما قلت لك يا بني، لم تكن جدتك (ديبا) فتاة سهلة، عاندتني كثيراً حتى قبلت الزواج بي، لو لم أتغلب على أقوى رجال القبيلة لما رضيت بي زوجاً.. كانت فتاة عنيدة قوية الشكيمة، وتتمتع بجمال نادر بين الفتيات الهنديات اللواتي قابلتهن.. ولست أدري ما الذي جعلني أقع في حبها، رغم أن فتيات كثيرات من فتيات القبيلة أظهرن لي المودة والحب.. هي الوحيدة التي اختارها قلبي.. سأحكي لك كيف؟

* * *

- قولي يا ديبا لماذا كنت تنفرين مني؟ لقد أظهرت لك حبي بكل الطرق..

- آه يا احمد كنت أخفي إعجابي بك رغماً عني.. هددنا (راكان) جميعاً بالذبح لأننا اختلطنا معكم وأصبحنا على دينكم.. كان الكاهن الأكبر وراء كل هذا العمل.. تضايق لأنكم حاصرتم سلطته، وكشفتم دجله.. وشعوذته..

- أما زلت خائفة منه؟

- معك يا أحمد لا أخاف شيئاً، مازال هو والكاهن يحاولان إشعال نار الفتنة ولكنك ورفاقك بارعون في حصار الفتنة..

- اسمعي يا ديبا، نحن نبني سفينة ضخمة لنعود بها إلى موطننا، وسننتهي من هذه المشاكل حال رحيلنا.. بلادنا جميلة يا ديبا، سترين كم

سيحبك أبي وأمي وإخوتي..

ـ أنا متشوقة للسفر معك يا حبيبي.. رغم مصاعب السفر في البحر..

ـ نحن بحارة أشداء لا نعرف الاستسلام، ونتعامل مع البحر بقوة وجسارة.. حكيت لك كثيراً عن رحلتنا الطويلة..

ـ إنها حكاية أشبه بأسطورة يا أحمد.. أكثر من ستة أشهر وأنتم تقارعون الموج..

ـ لم نبحر سوى لشهرين فقط، ولكن إصابة أحد رفاقنا جعلنا نحط على تلك الجزيرة ونحاول مساعدته في التغلب على المرض ـ رحمه الله ـ كان صديقاً رائعاً.. لم نستطع تركه لتصاريف القدر، فقضينا في تلك الجزيرة نحو أربعة أشهر.. ودفناه وقلوبنا مفعمة بالحزن على رحيله..

وطرق علينا الباب، كانوا بعض رجالي:

ـ أنا آسف يا سيدي على حضورنا في هذا الوقت المتأخر..

ـ خير؟ ما الذي جرى؟

ـ إنهم رجال (راكان)، علمنا أنهم سيتسلّلون الليلة إلى موقع بناء السفينة في نيتهم مهاجمة ذلك الموقع والاعتداء على العمال.. وربما تخريب كل عملنا طلب مني سيدي (سليمان) إعلامك بذلك..

ـ حسناً سأجهز نفسي للرحيل معكم..

ـ عجّل يا سيدي، قد تحدث معركة غير متكافئة، رجال (راكان) تسلّحوا بالسهام والمشاعل، وهم يتجمّعون خلف الكاهن..

ـ سآتي حالاً لن أتأخر..

قلت لديبا بعد خروجهم:

ـ يجب أن أذهب يا ديبا، رجال راكان والكاهن سيهاجمون عمالنا على الشاطئ حيث يجري بناء السفينة..

ـ انتبه لنفسك يا حبيبي..

ـ لا تقلقي سنمنعهم من الوصول للسفينة.. لا تفتحي الباب لأحد.. لن أغيب طويلاً..

* * *

((آه يا بني، لم يكن الوضع سهلاً، خرجت مع الرجال وقد ارتديت درعي، وحملت قوسي وسيفي وجعبة سهامي.. واتجهنا نحو مكان السفينة))

ـ وماذا حدث لسفينتكم التي قدمتم بها يا جدي؟

ـ ((بعيد وصولنا بأيام وصل الكهنة الصغار والكاهن الأكبر إليها فأشعلوا فيها النيران.. وبعد أن قضينا عدة أسابيع ننتقل في القبيلة من بيت إلى بيت نعالج المرضى، وندعو للسلام، ونشرح قصتنا، تبعنا الكثير من الهنود الحمر، وانضم إلينا رئيس القبيلة التي تنتمي إليها جدتك (ديبا).. وبعد أسابيع أخرى أصبحت القبيلة تدعمنا وتحيطنا بالاهتمام.. ولولا الكاهن الأكبر لعشنا في سلام مع الجميع)).

ـ وماذا حدث في تلك الليلة؟ هل استطعتم حماية السفينة الجديدة؟

ـ آه يا عبد الرحمن.. حين وصلنا إلى هناك كانت المعركة محتدمة..

* * *

كان راكان يقود المهاجمين وهو يصرخ:

ـ سددوا سهامكم النارية صوب الخشب، سيحترق بسرعة..

اتّجهت صوبه وأنا أهتزّ من الغضب:

ـ أيها الوغد الشرير، أما يكفيك غدراً؟

قال ساخراً وهو يحمّس رجاله لمتابعة الهجوم:

ـ تريدون الهرب، هه.؟. ليست العملية سهلة كما تظنون..

كانوا قد تمكنوا من التغلب على سليمان وكانوا يوثقونه.. كان يجب أن ننقذه بسرعة.. وكان راكان يصرخ مبتهجاً:

ـ عظيم أيها الفتيان، لقد أحرقتم الخشب، أرضيتم الآلهة..

ـ أيها الوغد.. لن أتركك حياً.. تعالى قابلني وجهاً لوجه..

صرخ برجاله:

ـ سددوا نحوه سهامكم أيها الأبطال..

ـ لن تؤثر بي سهامكم.. هيا يا رجال لنهاجمهم، إنهم خائفون.. أرشقوهم بتراب النار المتفجر..

وبدأت براعتنا العسكرية تظهر أطلقنا قذائف من الحجارة، جعلتهم يتراجعون بسرعة..

ـ هيا لننقذ سليمان.. أدركوا راكان قبل أن يهرب.

صرخ راكان:

ـ انسحبو بسرعة.. آه النار تشتعل في ثيابي..

أوقفته: ـ إلى أين؟ تعال إلى هنا..

* * *

((ونجحنا في إنقاذ سليمان وأصبت بسيفي ذلك الوغد (راكان) إصابة بليغة.. مات على أثرها، وهذا ما جعل الأمور تهدأ وقد فرّ الكاهن الأكبر وأتباعه من القبيلة.. ولكننا خسرنا السفينة، والخشب الذي جمعناه لبنائها.. وأجّلنا لبعض الوقت فكرة الشروع ببناء سفينة أخرى)).

ـ وكأن عملية التخريب تلك قد أصابتكم بيأس مؤقت؟

ـ ((نعم يا بني.. وكانت جدّتك حاملاً بوالدك.. وهذا ما جعلني أقنع رفاقي بتأجيل الرحيل حتى تلد ديبا.))

ـ وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

ـ ((تعلّق رفاق رحلتي بفتيات هنديات من القبيلة، وتزوجنهن في احتفالات صاخبة وطابت لهم الإقامة.. ولم يعودوا يفكرون بالرحيل والعودة إلى الوطن.. أما أنا فكان ذلك هاجساً في صدري، ظل يختلج حتى بدأت فعلاً أبني السفينة، وساعدني في ذلك العديد من أقرباء ديبا.. وقد علمتهم كيف ينفذون المخططات التي رسمتها لهم)).

- 4 -

تابع الدكتور عبد الله حديثه وقد شرد للحظات:

ـ يبدو أن الحكاية قد توقفت هنا، لم يكمل عبد الرحمن حكاية جده أحمد الذي هو أحد الفتية الأغرار..

دخلت علي ابنتي هالة:

ـ ما بك يا أبي؟ هل أنهيت قراءة الأوراق؟ تبدو شارداً؟

ـ كنت منغمساً في قراءة تلك الحكاية الجميلة، وفجأة انقطعت، كأن هناك أوراقاً ناقصة.. ألم تحضر عمّتك ليلى بعد؟

ـ أنا أنتظرها بشغف.. من أين حصلت عمّتي على هذه الصور؟ إنها صور أوراق مخطوطات قديمة جداً..

ـ أصول هذه الصورة مع عمتك.. لديها وثائق هامة جداً حول الفتية الأغرار.. لذلك سيكون كتابها فريداً يا ابنتي..

ورن جرس الباب ودخلت الدكتورة ليلى.. فتحت لها هالة الباب مسرورة:

نهضت استقبلها:

ـ أهلاً يا عمتي.. نحن ننتظرك بشوق.. ولهفة..

ـ وأخي عبد الله هنا وليس خارج البيت؟ هه أين تجلسون؟

ـ أهلاً بك يا أختاه.. سنجلس هنا في الصالة..

ـ أراك تحمل أوراقي.. آه.. إنها صور المخطوطات التي طلبتها مني.. هل اطلعت عليها كلها؟ بالتأكيد أذهلتك معلوماتها..

ـ نعم.. ولكن بعضها غير كامل.. ربما أجد التفسير عندك..

ـ تريد معرفة نهاية حكاية أحمد التي رواها لحفيده عبد الرحمن؟

ـ نعم.. نعم.. أتعرفين نهاية هذه الحكاية.؟

ـ سأحكي لك كل شيء توصلت إليه يا عبد الله.. ولكني أريد أن أشرب القهوة أولاً..

قالت زوجتي: ـ سأعد القهوة سريعاً..

قالت ليلى لهالة:

ـ أحضري لي مسجلاً يا ابنتي.. أريد أن أسمعك يا عبد الله هذه الرسالة.. أحدهم تركها في مسجل جهاز الهاتف..

ـ حسناً يا عمتي.. سأحضر لك مسجل جهاز الهاتف إنه بشريط عادي كشريط المسجل الكبير..

همست ليلى:

ـ إنها رسالة تهديد يا عبد الله.. كأنّ هناك منظمة تهددني..

ـ تهدّدك، لماذا؟ ماذا فعلت؟

- لأنني سأنشر الكتاب..

أحضرت هالة المسجل.. همست:

- يجب أن لا أشرك هالة بالاستماع إلى الرسالة..

قلت لها: - لا عليك، هالة صبية ناضجة.. متفهمة..

ودار الشريط وسمعت صوتاً أجش:

((دكتورة ليلى الحمدان، ما الذي تريدين الوصول إليه؟ هه؟ تريدين الإثبات أن عائلات الهنود الحمر المتواجدة جنوب نيويورك وحول مدينة (أطلنطا) لها أصول عربية وتعود إلى أولئك الشبان الذين غامروا بقطع المحيط من إسبانيا حتى أمريكا؟ أنت مجنونة يا دكتورة ليلى.. لن نسمح لك بنشر هذا الكتاب.. ولن تفلتي منا إن فكرت بنشره لا تأخذي هذا الكلام باستهتار.. نحن جادون في كلامنا.. أفهمت؟)).

- إنهم يتابعون ما أفعله بدقة شديدة استمع لما يقولونه..

((نحن نراقب تحركاتك.. في إسبانيا وأميركا.. وفي دمشق وبيروت، والمدن الأخرى.. توقفي عن هذا المشروع المجنون.. لن نتركك تتابعين ما تفعلين.. إنه خطر.. خطر شديد ستتعرضين له)).

قلت لها: - ربما كان الأمر مجرد عبث، بعض الناس يتسلون..

قالت: - كيف يا أخي؟ المعلومات التي يقولونها لا أحد يعرفها سوى المقربين مني..

- وماذا تريدين أن تفعلي؟

- والله لا أدري يا عبد الله.. إنه أمر شديد الخصوصية.. من هم أولئك الناس الذين ليس من مصلحتهم نشر كتاب يؤكد على وصول العرب المسلمين إلى أمريكا قبل كولمبس بنحو (500) عام؟ قد تقول هناك الكثير من الناس الذين يرفضون مثل هذه الأفكار الجديدة.. ولكن أن تصل العملية إلى مرحلة التهديد بالقتل فهذا أمر غريب؟

- لماذا لا نستعين بالشرطة، على الأقل يستطيعون حمايتك هنا.؟.

- أنا مسافرة غداً إلى إسبانيا، ومنها إلى أمريكا.. لن أستطيع الاستعانة بالشرطة الإسبانية أو الشرطة الأمريكية، ليس من مصلحة أي منهما مساندتي..

- وماذا ستفعلين؟

ـ يجب علي أن أعتبر المسألة مجرد عبث.. لن آخذها بجدية.. وحين سأصل أمريكا سأكون بين أصدقائي هناك ولن أخاف شيئاً..

ـ فعلاً يا عمتي الموضوع ليس سهلاً.. ولكن هل يجب أن لا تتوقفي عن نشر الكتاب.؟ قد يفكرون جدّياً بإيذائك.؟.

ـ لننس الموضوع ولنشرب القهوة..

سألتها: ـ أين تحتفظين بوثائقك يا ليلى؟

ـ في مكان أمين لا تقلق من هذه الناحية لن يستطيع أحد الوصول إليها إلاّ بمعرفتي.. على كل حال أحضرت لك صوراً عن بقية الأوراق التي جمعتها، يعني أن لديك الآن نسخة كاملة عن أوراقي ووثائقي..

قلت: ـ إنها نسخة احتياطية، سأحافظ عليها جيداً..

ـ وفيها الأجوبة عن تساؤلات كبيرة يا عمتي..

- 5 -

سأله سعد:

ـ ولم ترها بعد ذلك؟

ـ ودعناها في ذلك المساء.. ورغم محاولاتي لم توافق على ذهابي معها إلى المطار في الصباح.. كنت أشعر بحزن شديد وإكبار لتلك المرأة المكافحة الصابرة التي أخذت على عاتقها أن تحقق ذلك الاكتشاف المذهل وتنشره على الملأ..

ـ ومازلت تحافظ على تلك الأوراق؟

ـ بالتأكيد، وسأحاول نشر المخطوطة التي تعبت أختي ليلى كثيراً في سبيلها قبل أن تدفع حياتها ثمناً لذلك..

ـ ما زالت أمامنا ساعة حتى نصل مطار دمشق.. قبل أن أسألك عن تتمة قصة أحمد ـ أحد الفتيان الأغرار ـ سأسألك أولاً عن الدكتورة ليلى.. كيف اختفت؟ وأين؟

ـ كما قلت لك.. ودعناها في المساء.. وطلبت منها بإلحاح أن تتصل بي من إسبانيا ثم من نيويورك وأن لا تقطع اتصالاتها معي.. لأطمئن عليها.. وفعلاً اتصلت بي بعد وصولها إلى مدريد.. حيث قضت هناك نحو الشهر تجمع بعض المعلومات عن التاريخ الأندلسي المتوفرة وثائقه في الأسكوريال.. ثم انتقلت إلى غرناطة وقرطبة وإلى المرافئ الإسبانية الجنوبية تتابع الخطوات الأولى لرحلة الفتية الأغرار إلى الأرض

الجديدة..

ـ الذي أعرفه أنها زارت تلك المناطق من قبل؟

ـ هذا صحيح، ربما زارتها عشرات المرات، ولكن يبدو أن بعض التساؤلات الصغيرة كانت تلحّ عليها لذلك قامت بتلك الرحلة.. واستغرق بقاؤها في إسبانيا تلك الفترة نحو الشهر..

ـ ولم تحكِ لك عن أي تهديد جديد تعرضت له؟

ـ في إحدى المرات سألتها عن ذلك.. ولم تجبني بوضوح..

ـ لم أفهم.. ما الذي تعنيه بذلك؟

ـ سألتها أليس من مشاكل يا ليلى؟ أجابت وهي تتنهد. "حتى ولو تراكمت المشاكل لحصاري فسأجتازها.. لن أتوقف عن مهمتي أبداً.".

ـ كان من الواضح أنها تعاني..

ـ نعم.. وفي إحدى المرات تحدثت معي في ساعة متأخرة من الليل، لم تكن وحدها.. أيقظني هاتفها من نومي:

"كنت نائماً يا عبد الله.. أنا آسفة.".

ـ لا بأس.. كيف حالك يا ليلى.. قلبي عندك يا أختاه..

"أنا بخير.. سأغادر إلى نيويورك غداً.".

ـ يجب أن تتصلي بي فور وصولك..

"نعم.. اسمع يا عبد الله.. معي صديق من أصول عربية، من جامعة غرناطة هو يعرف العربية جيداً.. وهو متحمس لمشروعي.. إذا لم أتصل بك، سيتولى هو الاتصال بك ليطمئنك على أحوالي.. سنسافر معاً.. إنه البروفسور أرماندو يريد أن يحادثك.".

قال أرماندو بعربية مكسرة:

ـ كيف حالك يا دكتور عبد الله.. أنا سعيد بمعرفتك حكت لي الدكتورة ليلى عنك كثيراً..

ـ أرجو أن تنتبه لليلى.. إنها مغامرة جريئة إلى حدّ التهور أحياناً..

ـ لا تقلق عليها، عندما نصل نيويورك ستكون في أمان تماماً.. لي أصدقاء كثيرون هناك.. ولن أدع زوجتي تفارقها..

ـ هذا جيد.. أرجو أن تعتني بها، إنها لا تنتبه إلى صحتها كثيراً..

ـ زوجتي تحب ليلى كثيراً، و هي مؤمنة باكتشافها.. زوجتي عاشت في دمشق لسنوات، إنها تدرّس اللغة العربية في جامعة غرناطة.. نحن نتحدث من بيتنا.. أصرّت ليلى على الاتصال بك..

ـ سررت بالتعرف عليك.. لن أقلق على ليلى و هي بصحبتكم..

عادت ليلى تتحدث معي:

ـ عبد الله حافظ جيداً على صور الوثائق.. ضعها في مكان أمين.. ولا بأس لو اطلعت عليها هالة.. ولخصت فحواها.. حسناً يا أخي سأتصل بك من نيويورك.. تصبح على خير..

ـ انتبهي لنفسك يا أختاه..

أكمل الدكتور عبد الله حديثه:

ـ أشعرني ذلك بالراحة والاطمئنان فليلى ليست وحيدة..

ـ و هل اتصلت بك من نيويورك؟

ـ نعم.. سأحكي لك..

و أتت المضيفة التي تشبه ليلى:

ـ أتتناولان بعض الحلوى مع العصير؟

ـ بالنسبة لي لا أستطيع ما رأيك يا سعد؟

ـ قطعة صغيرة فقط لا بأس..

ـ تفضل.. تريد عصير برتقال أم مانغا؟

ـ مانغا كما رغب الدكتور عبد الله.. شكراً لك..

قالت لينا التي كانت مستغرقة في الإنصات إلى حديث الدكتور عبد الله:

ـ فعلاً إنها تشبه ليلى كثيراً..

علّق عبد الله: ـ سألتها عنها فلم تعرفها..

عاد سعد يسأل: ـ قلت لي إن الدكتورة ليلى اتصلت بك من نيويورك؟

ـ نعم.. مرة واحدة فقط.. قالت لي إنها بخير، وإنها بين أصدقائها وأحبائها.. ولم تتصل بعد ذلك.. اتصل أرماندو مرتين يطمئنني عليها.. ثم إنقطعت أخبارها عني لمدة عشرة أيام.. وكنت قلقاً خائفاً حين اتصل بي أحد أصدقائها من نيويورك..

ـ أنا آسف على أنني اتصل في هذه الساعة..

ـ من الذي يتكلم؟

ـ ألست الدكتور عبد الله الحمدان؟

ـ نعم.. ماذا تريد؟ ومن، أين تتحدث.. أنت تتحدث من خارج لبنان؟

ـ أتحدث من نيويورك؟

ـ خير؟ أترى الدكتورة ليلى؟

ـ أنا آسف يا دكتور.. إنها في المستشفى..

ـ ماذا جرى أرجوك أخبرني؟

ـ تعرضت والدكتور أرماندو وزوجته لحادث خطير في أحد الشوارع الفرعية في نيويورك.

ـ حادث عادي..؟

ـ كان حادثاً مدبراً.. مقصوداً وجرى صب البنزين على السيارة وإضرام النار فيها، ولولا الناس الذين تواجدوا بالصدفة لانفجرت السيارة بمن فيها، فقد تمكنوا من إخراج ليلى وأرماندو وزوجته في حالة يرثى لها..

ـ يا إلهي.. وكيف حالتهم الآن؟

ـ لا أكتمك إنهم ما زالوا في قسم العناية المركزة..

وأكمل الرجل: ((اسمي (فريد آشر) من أصل شرقي أحمل الجنسية الأمريكية.. سأعطيك رقم هاتفي.. قد تحتاج له لمعرفة التطورات على حالة ليلى.. اسمع يا دكتور عبد الله.. أنا متعلق بالدكتورة ليلى كثيراً.. والدي من مشهد في إيران وزوجتي لبنانية، اعتبرني أحد أفراد أسرتك.. لا تقلق على ليلى.. لن أتركها أبداً.. اكتب رقم هاتفي)).

ـ ولم أسمع بعدها عن ليلى فقد اتصلت بفريد وقال إنهم خرجوا من المستشفى ولم يعرف أحد هل خرجوا أحياء أم أموات.. ولا أثر للوثائق والمخطوطات التي كانت تحملها، وليس سوى صورة المخطوطات التي أملكها، وقد صممت أن أنشرها في كتاب مهما كلفني ذلك.. أنا ذا هب

للمغرب للاتصال ببعض الأصدقاء حول ذلك.. عندي الآن معلومات كثيرة ولكنني متأكد أن ليلى تملك معلومات غزيرة، مازلت محتاراً في نوعية الجهة التي ضايقتها.. وإن كنت أخمن أنها جهة معادية للعرب ولتراث العرب..

- والجهات المعادية للعرب ليست واحدة.. إنها كثيرة أيضاً..

- معك حق.. خاصة بعد الحادي عشر من أيلول، الذي غيّر العالم..

- قل لي يا دكتور عبد الله، هل تمكن أحمد من بناء سفينته وعاد بها إلى الأندلس مع زوجته ديبا وطفله..

- أبحر مع بضع البحارة وانقطعت أخباره.. وأعتقد أن محاولات الدكتورة ليلى وزيارتها المتكررة لإسبانيا كانت لحل هذه المعضلة.. ولا أحد يعرف سواها تلك المعلومات التي وصلت إليها في هذا الاتجاه..

أخذت الطائرة تحوم استعداداً للهبوط اقتربوا من مطار دمشق الدولي.

- هناك إشارة لربط الأحزمة.. أرجو أن تترك لي عنوانك.. يجب أن أراك بالتأكيد.. هناك الكثير من الأسئلة أبحث عن أجوبتها.. وقد تكون هذه الأجوبة لديك..

- سأزودك بعنواني.. انتبه إلى زوجتك إنها تشير لك..

- نعم.. نعم.. شكراً لك يا دكتور.. وفرصة طيبة أن أتعرف على شخصية هامة كشخصيتك.. وأشكر الظروف التي عرفتني عليك.. عن إذنك..

- في حفظ الله يا بني..

- 6 -

كانت دمشق تغطيها السحب، وحين ودع سعد الدكتور عبد الله في المطار شعر بالشفقة عليه، إنه يطارد خلف ليلى ليتأكد من مصيرها المجهول.. وهو يحمل الإرث الذي تركته، أمانة في عنقه، لينشره على الملأ وهو يشعر بالتردد، دون أن يستطيع حسم موضوع اختفاء ليلى، هل كان اختفاء فعلاً؟ أم كان عملاً ذكياً قامت به ببراعة لتبتعد عن أعين البصاصين والمطاردين لها بتسميات مختلفة.. هل هي مازالت حية؟ وهل خرجت من المستشفى إلى مكان مأمون مع ارماندو وزوجته؟

يجب نقل هذه المعلومات إلى الدكتور إبراهيم، إلى عائلة الإشبيلي ليعملوا على تتبع طريق اختفائها ومعرفة مصيرها، وربما الوصول إليها حية..

كان هذا الأمر يشغل باله وليدنا، وهما يجولان في شوارع دمشق يستعيدان ذكرياتهما، يجولان على أحيائها القديمة ومقاهيها ومطاعمها ينتقلان إلى غوطتها وإلى ريفها ثم يعرجان على المدن الأخرى.. كأنما أرادا في شهر أن يزورا ما استطاعا من مناطق، وقد لاحظا قوة إيمان الناس بوطنهم، أمام ما تحاك ضده من مؤامرات القوى العظمى والصهيونية العالمية..

* * *

بعد عودتهما إلى نيويورك نشط الجميع في البحث عن ليلى حمدان إثر المعلومات التي وفرها لهم أخوها عبد الله...

وما زال البحث جارياً.....................................

■■■

المحتوى

■■■

(صدر للمؤلف)

دراسات:

1 - العالم من حولنا (دمشق 1976)

2 - في الخيال العلمي (ابن رشد - بيروت 1980)

3 - نافذة على كوكب الحياة (دمشق 1980)

4 - في العلم والخيال العلمي (دمشق - 1989)

5 - سحر الأسطورة (دمشق - 1990) ترجمت للإنكليزية 1995.

6 - الحاسة السادسة (دار المعرفة - دمشق 1990 ط1 - ط2 1992 - ط6 1998) ترجمت للإنكليزية 1997.

7 - الكون يكشف أسراره (دار معد - دمشق 1992 - ط 2 1995)

8 - كوكب العاصفة (دار معد - دمشق 1993 - ط 2 1994).

قصص وروايات من الخيال العلمي:

1 - كوكب الأحلام (دمشق 1978)

2 - العابرون خلف الشمس (دمشق 1979)

3 - صوت من القاع (دمشق 1979)

4 - ضوء في الدائرة المعتمة (دمشق 1980)

5 - ليس في القمر فقراء (دمشق 1983 - ط2 دار الفكر 1997 - ط3 1999)

6 - أسرار من مدينة الحكمة (دمشق 1985 ترجمت للإنكليزية 1992 ونشرت في الهند)

7 - محطة الفضاء (دمشق 1987)

8 - تلك الليلة الماطرة (دمشق 1991)

9 - السبات الجليدي (دمشق 1992)

10 - ثقب في جدار الزمن (هيئة الكتاب - القاهرة 1992)

11 - الخروج من الجحيم (دمشق 1993)

12 - خفايا النفس البشرية (الكتاب العربي - دمشق 1994)

13 - بئر العتمة (دار علا - دمشق 1995)

14 - مساحات للظلمة (دمشق 1995).

15 - الذي أرعب القرية الآمنة (دمشق 1996)

16 - شحنة الدماغ (دمشق 1996)

17 - عوالم من الأمساخ (دار الفكر 1997)

18 - رجل من القارة المفقودة (دار الفكر 1997)

19 - فضاء واسع كالحلم. (دار الفكر 1997)

20 - مدينة خارج الزمن (دمشق 1999)

21 - الزمن الصعب (دار الفكر 1999) ط 2 (2002)

22 - رواد الكوكب الأحمر (دار الفكر 1999) ط 2 (2002)

23 - زمن القبعات المنتفخة. (دار الفكر 1999) ط2 (2002)

24 - شفافية أشبه بالصدى (دار الفكر 1999) ط2 (2002)

25 - التحول الكبير (دار الفكر 1999 ط 2 (2002)

26 - ابن الغابة (دار الفكر 1999 ط 2 (2002)

27 - بوابة خان الخليلي (دار الفكر 1999 ط2 (2002)

28 - النفق (دار الفكر 1999 ط 2 (2002)

29 - البعد الخامس (دمشق 2000)

30 - الظلال الأخرى (دار الفكر 2003)

31 - في كوكب شبيه بالأرض (ط 1 (1985) دمشق ط 2 دار الفكر 2003)

32 - البدائل المذهلة (دار الفكر 2003)

33 - مثلث الأسرار (دار الفكر 2003)

34 - امرأة من عالم مختلف (دار الفكر2003)

35 - البحث عن عوالم أخرى (دار الفكر 2003)

36 - أحزان السندباد (دمشق 2002)

37 - الأزمان المظلمة. (دار الفكر 2003)

38 - الأصابع السحرية (دار الفكر 2004)

39 - حورية البحر (دار الفكر 2004)

40 - في ليل الصحراء الغامض (دار الفكر 2004)

41 - أمومة لا تعرف اليأس (دار الفكر 2004)

42 - أنفاق العوالم الأخرى (دار الفكر 2004)

43 - طيور الليل (دار الفكر 2004)

44 - فوضى الزمن القادم (دمشق 2005)

45 - مزون (ملحمة روائية) (دار الفكر 2005)

■■■